

مؤلفات
ابن قيم الجوزية
١

اسماء الله الحسنى

تأليف

الإمام تقي الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

بقلم المؤلف و ترجمه أمازييه زلفان عليو

يوسف علي بيدي
امين عبد الرزاق استوا

اسماء
الله
الحسنى

منتديات
www.ira.ahlamontada.com



www.ira.ahlamontada.com

للكتب الكوردية - العربية - فارسية

دار الرزق
دمشق - سوريا

بۆدابهزاندنی جۆرهها کتیب: سهردانی: (مُنْتَدَى إِقْرَأِ النَّقَافِي)

تعمیل انواع الکتب راجع: (مُنْتَدَى إِقْرَأِ النَّقَافِي)

پدای دانیود کتایهای مختلف مرآحه: (منتدی اقرا الثقافی)

www.iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للکتب (کوردی ، عربی ، فارسی)

حُقُوقُ الطَّبعِ وَالصُّوَرِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دمشق - حليوي - جادة ابن سينا - بناء الجساري
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف ديبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٢٠٤٤٥٩ - ٣


للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الله الحسني

تأليف

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

حقه نصوصه وقرع أماريته وعلق عليه

أيمن عبد الرزاق اشوا

يوسف علي بيدي

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال ابن القيم:

- لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في عالم الغيب عنده دون خَلْقِهِ، لا يعلمها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسل... حسبنا الإقرار بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه.
- آيات الصفات: العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها اللهُ سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً، لا يقع فيه لبسٌ ولا غموض.
- أسرار كلام الله أجلّ وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم: الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإنَّ باديةً إلى الخافي يسير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، صاحب الخلق العظيم، والمنزل الأسنى، وعلى آله وأصحابه أولي الدرجات الأسمى.

أما بعد:

فإننا في رحاب كتابٍ عظيم، وكاتبٍ قدير... أمّا الكتابُ فهو: أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وأمّا الكاتب فهو: العلامة ابن القيم. وموضوع الأسماء الحسنى من أبرز موضوعات العقيدة الإسلامية، وقد أمرنا البيان القرآني بمعرفة هذه الأسماء، والتزامها، والدعاء بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقِيمَاتُ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وبشرنا النبي ﷺ بالجنة إزاء من حفظها، وطبقها، وأطاقها بحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» متفق عليه.

من هذه الأهمية تنافس العلماء والمفسرون في الحديث عن هذا الموضوع...

ففي كتب الصحاح، والشُّنن، والمسانيد ذُكِرَ واسع لأسماء الله تعالى ولأحاديث الصفات، منها كما جاء في القرآن، ومنها غير ذلك، بل قد بُوِّبَ فيها أبواب مثل: كتاب التوحيد؛ الذي هو في آخر كتاب صحيح

البخاري، ومثل كتاب: الردّ على الجهمية في سنن أبي داود، وكتاب: النعوت في سنن النسائي؛ فإن هذه مُفَرَّدة لجمع أحاديث الصفات. وكذلك قد تضمن كتاب الشُّنة من سنن ابن ماجه ما تضمّنه، وكذلك تضمّن صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن أبي داود، وصحيح ابن حبان، ومستدرک الحاكم، وغير ذلك من المصنّفات الأمهات وشروحها، كفتح الباري، وتحفة الأحوذى، فإن الحافظ ابن حجر جمع أسماء الله الحسنی برواياتها المختلفة، وتحدث عنها حديثاً مستفيضاً.

على أننا نجد كتب العقيدة، والتوحيد، والأصول قد خصّصت فصلاً مطوّلاً للحديث عن أسماء الله، وبيان معانيها وأقسامها حسب دلالتها على الذات، أو على الصفات والأفعال، كما فعل البغدادي في «أصول الدين» والإمام الجويني في «الإرشاد»، وكما فعل البيهقي في «الأسماء والصفات» وفي «الاعتقاد والهداية» وغيرها من المصنّفات.

كما أنه لا يخلو كتاب من كتب التفسير من العناية بهذا الجانب وأهميته، فالمفسّر يُبيّن السياق الذي ورد فيه الاسم الجليل، ويرز دوره البلاغي في السياق القرآني، أو ما يسمّى بالنظم البياني، فيبحث أسرار التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، ويضيء وجه الحكمة في ذلك، كما يلتفت إلى وجه اقتران كل اسمين معاً في اختصاص دون آخر، إضافة إلى الاهتمام بالناحية الإعرابية فيه.

ويصنّف علماء آخرون في رحاب أسماء الله، فيبيّنون ما تضمّنه من المعاني الجمالية والقيم الخلقية، مؤكّدين عظمة الخالق من خلال دلالة هذه الأسماء.

ويجتهد آخرون في الاستدلال بأسماء الله وصفاته وأفعاله على

توحيده، وترسيخ مبادئ العقيدة من خلالها.

وقد أجاد بعض العلماء في بيان هذه الأسماء من خلال المنظومات الشعرية، فبرزت أسماء الله تعالى من خلال نظم شعريّ بارع.

وعكف شراح الحديث النبوي كالإمام النووي، والعيني، وابن حجر، والقسطلاني، والسيوطي، وغيرهم على بيان معاني هذه الأسماء الجليلة، فصار الحديث عنها معلماً بارزاً، وفتناً قائماً بذاته.

وأولى علماء التوحيد وأهل التصوف هذا الموضوع عنايةً فائقةً، فسمت نفوسهم من أجل البحث والتفتيش عن صفات الربوبية، ومعاني الجلالة والعظمة، فهو مطلب عزيز المرام:

كالبدر من حيث التفت رأيتَه يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

فالأسماء الحسنى يُنال بها لكل مطلوب، ويتوسل بها إلى كل مرغوب، وبملازمتها تظهر الثمرات، وصرائح الكشف، والاطلاع على أسرار المغيبات، وأما إفادة الدنيا فالقبول عند أهلها، والهيبة، والتعظيم، والبركات في الأرزاق، والرجوع إلى كلمته، وامتنال الأمر منه. . وهذا سرٌّ عظيمٌ من العلوم لا يُنكر شرعاً ولا عقلاً.

قال صاحب «مفتاح السعادة»:

«اعلم أن النفس بسبب انشغالها بأسماء الله سبحانه وتعالى تتوجّه إلى جناب القدس، وتتخلى عن الأمور الشاغلة لها عنه، فبوساطة ذلك التوجّه تفيض عليها آثار وأنوار تناسب استعدادها الحاصل لها بسبب الاشتغال، ومن

هذا القبيل الاستعانة بخواصّ الأدعية، بحيث يعتقد الرائي أن ذلك يفعل السحر^(١).

ومن هنا ليس أماننا إلا عمل الطاعات، وفعل الخيرات، ومناجاة الحق بأسمائه؛ لأن الإنسان مظهرٌ للأسماء والصفات، مرآة لها، كما أنه صورةٌ جامعة من الأسرار الإلهية والمعاني الرحمانية، فالله سبحانه يتجلى بأسمائه على عباده، فترى آثارها في صورهم، وألوانهم، وأحوالهم، وأمزجتهم، وتطوراتهم.

كما أنّ للأسماء تجلياتٍ شتى، وأسراراً لا تتناهى، وإن تناهت الأيام والأعمار: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وعظمة الأسماء أكبر من أن يكشف عنها نقاب، أو يصل إلى حقيقتها وعظمتها أولو الألباب: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

والسعيد من وفقه الله، فاشتغل بطاعة مولاه، غير معتمد على عمله وتقواه، ومن أراد الارتقاء فليعلم أن صفات الله لا تدرك إلا بعد معرفة تأثيرها في الموجودات، وبقدر مراتب العلم تكون درجات المعرفة.

وقد سهّل الله سبحانه لنا طريق الدعاء بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: سبحوه، واذكروه، واعبدوه بها؛ كي نرقى في ذلك إلى أسمى غاية، ونشرب من رحيق المعرفة الكافية.

والرسول الكريم يقول: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» ومعنى أحصاها: حفظها، ووعاها، ودعا بها، وكرّر تلاوتها عالماً

(١) كشف الظنون (١/٧٢٥).

بمعناها، والله سبحانه سَمَى نفسه بما سماها، وجميع الأسماء إلى ربك
متناها، قال ابن العربي:

«فمن حصَّل هذه المعاني في أسماء الله نال الحسن من كل طريق،
وحصل له القطع بالتوفيق»^(١).

وقد تسابق أهل العلم للتأليف في هذا الموضوع الجليل، فبيّنوا
معانيها، وأظهروا للناس دواعي معرفتها ومقاصدها، ولا شك أن معرفة الله
عز وجل بأسمائه وصفاته هي غاية الغايات، وأشرفها قدراً، وهي السبيل
إلى دخول الجنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحصاها دخل الجنة».

قال أبو بكر ابن العربي حول السبيل إلى معرفة هذه الأسماء:

«حلَّق العلماء عليها، وساروا إليها، فمن جائرٍ وقاصِدٍ؛ والقاصِد في
الأكثر واقف دون المرام، والجائر ليس فيه كلام... والذي أدلكم عليه
أن تطلبوها في القرآن والسنة، فإنها مخبوءة فيهما، كما خبثت ساعة
الجمعة في اليوم، وليلة القدر في الشهر رغبةً، والكبائر في الذنوب رهبةً؛
لتعمّ العباداتُ اليوم بجميعة، والشهر بكليته، وليقع الاجتناب لجميع
الذنوب، وكذلك أخفيت هذه الأسماء المتعددة في جملة الأسماء الكلية،
لندعوها بجميعة، فنصيب العدد الموعود به فيها»^(٢).

أما ذكرها في القرآن فقد وردت في ثلاثٍ وثلاثين سورة، منها من
ضمّ اسماً واحداً كسورة التوبة، والكهف، ومريم، والحج، والنمل،
وغيرها.. ومنها ما جمع اسمين من أسمائه الحسنى، كما ورد في سورة
الأنفال، والرعد، وفاطر... ومنها ما نظم مجموعة من أسمائه الحسنى

(١) أحكام القرآن (٢/٨٠٤).

(٢) المصدر السابق (٢/٨٠٥).

كما نجده في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والحشر، وغيرها .
وإليك بيان مواطن أسماء الله تعالى الحسنی التي وردت مفصلةً في

القرآن الكريم:

الفاخرة:

فيها خمسة أسماء: الله (١)، الرب (١)، الرحمن الرحيم (٢)،
المالك (٣).

في سورة البقرة: المحيط (١٩)، القدير (٢٠)، العليم (٣٢)،
الحكيم (٣٣)، الثواب (٣٧)، البارئ (٥٤)، البصير (٩٦)، الواسع
(١١٥)، السميع (١٢٧)، العزيز (١٢٩)، الرؤوف (١٤٣)، الشاكر
(١٥٨)، الإله (١٦٣) الواحد (١٦٢)، الغفور (١٧٣)، القريب (١٨٦)
الحكيم (٢٢٥)، الحي (٢٥٥)، القيوم (٢٥٥)، العلي (٢٥٥)، العظيم
(٢٥٥)، الغني (٢٦٣)، الولي (٢٥٧)، الحميد (٢٦٧)، الخبير (٢٣٤)،
البدیع (١١٧).

وفي سورة آل عمران: الوهاب (٨)، الناصر (١٥٠)، الجامع (٩).
وفي سورة النساء: الرقيب (١)، الحسيب (٦)، الشهيد (٣٣)،
الكبير (٣٤)، النصير (٤٥)، الوكيل (٨١)، المقيت (٨٥)، العفو (٤٣).
وفي سورة الأنعام: القاهر (١٨)، اللطيف (١٠٣)، الحاسب (٦٢)،
القادر (٦٥)، الحكيم (٧٣).

الأعراف الفاتح (٨٩).

الأنفال القوي (٥٢)، المولى (٤٠).

التوبة العالم (٩).

هود الحفيظ (٥٧)، المجيب (٦١)، المجيد (٧٣)، الودود (٩٠).

يوسف المستعان (١٨)، القهار (٣٩)، الغالب (٢١).

المتعالي (٩)، الوالي (١١).	الرعء
الحافظ (٩)، الوارث (٢٣)، الخلاق (٨٦).	الحجر
المقتدر (٤٥).	الكهف
الحفي (٤٧).	مريم
الغفار (٨٢)، الملك (١١٤)، الحق (١١٤).	طه
الهادي (٥٤).	الحج
المبين (٢٥)، النور (٣٥).	النور
الكريم (٤٠).	النمل
المحيي (٥٠).	الروم
الفتاح (٢٦).	سبأ
فاطر (١)، الشكور (٣٠).	فاطر
الكافي (٣٦).	الزمر
الخالق (٦٢).	غافر
المنتقم (١٦).	الدخان
الرزاق (٥٨)، المتين (٥٨).	الذاريات
البرّ (٢٨).	الطور
المليك (٥٥).	القمر
ذو الجلال والإكرام (٢٧).	الرحمن
الأول، الآخر، الظاهر، الباطن (٣).	الحديد
القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، المتكبر، المصور (٢٣).	الحشر
الأعلى (١).	الأعلى
الأكرم (٣).	العلق

الإخلاص الأحد (١)، الصمد (٢).

الكتب المؤلفة في معاني أسماء الله تعالى:

تختلف مناهج التأليف في بيان معاني أسماء الله الحسنى وفق اختلاف مذاهب المؤلفين، وتنوع اختصاصهم، من المفسرين، وعلماء الحديث، وعلماء التوحيد والتصوف، ومن علماء العربية وفقه اللغة، ففي كل علم من هذه العلوم كتب مفردة لهذا الحديث العظيم حول أسماء الله تعالى، وهي ثروة غنية تحتاج إلى رصد وتدوين.

ابن القيم وجهوده

في مجال دراسة أسماء الله الحسنى

سعى ابن القيم - كغيره من جهابذة العلماء - للإدلاء بدلوه في مجال الحديث عن أسماء الله الحسنى، وتوضيح معانيها؛ من أجل تعميق الإيمان، وتثبيت العقيدة الصحيحة، وغرس القيم الإسلامية السامية في الفرد والمجتمع، واجتهد في بيان سبل تمثلها، والعمل بمقتضاها في حقوق الله وحقوق العباد، وفهم دلالاتها والعمل بها، وترسيخ مبادئها في العقول، وفي النفوس، وفي القلوب.

وقد أكد ابن القيم أن العلم بأسماء الله وإحصاءها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها^(١).

(١) بدائع الفوائد (١/١٦٣).

وهو يقرر مذهب السلف في إثبات كل ما جاء في القرآن والسنة من صفات، وأسماء، وأخبار، وأحوال على ما يليق بالرب سبحانه^(١)، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر، والحكم، والغايات المحمودة بفعله وأمره، وقد ردّ على الجهمية والمعتزلة والقدرية إنكارهم للصفات، وحقائق الأسماء الحسنى.

ومضمون الكتاب يتحدث عن معرفة أسماء الله وصفاته، فيوضح شواهد الصفات من الكتاب والسنة، ويرشدنا إلى أن الإيمان بصفات الرب عز وجل أساس الإسلام، كما يفرد فصلاً للحديث عن أصول الأسماء الحسنى، وفيه أن كمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمعرفة فاطره، وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته. ويردف هذا يبحث يتناول مشهد الأسماء والصفات، يركز فيه على أن معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً مرتبطة بالأسماء الحسنى، والصفات العلى.

وفي مجال العقيدة يتوسع في بيان مقتضيات الأسماء الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها، ويتناول أيضاً كيفية الثناء على الله بأسمائه ومواردها في القرآن وفي السنة، ومباحث أخرى تتصل بالدعاء، والتوسل بأسمائه الحسنى.

وعقد فصلاً يبين فيه تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر، وأكد الالتزام بالأدب في إطلاق هذه الأسماء كما حددها القرآن والسنة الشريفة.

وكان في اعتماده أحاديث الأسماء والصفات يتحرى لما يرد منها إذا صحّت من طريق النقل والسند تأويلاً لا يخرج على معاني أصول الدين

(١) المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة (ص ٣٨).

ومذاهب العلماء، ولا يبطل الرواية فيها أصلاً، إذا كانت طرقها مرضية ونقلتها عدولاً.

وهو في هذا التأليف يعرض لُبَاب أقوال العلماء، والمفسرين، والمحدثين، وحذاق أهل اللغة في بيان دلالة الأسماء الحسنی من حيث معانيها، ولغتها، وأبنتها، واشتقاقها، وبلاغتها.

ويستطرد في الحديث عن مسائل لغوية كانت مدار حديث علماء العربية، كالقول في معنى (اللهم) وبيان خلاف العلماء في أصلها، وكذلك موارد صفته (تبارك) في القرآن والمعاني التي تدل عليها من خلال معاجم اللغة، وكتب معاني القرآن، والتفسير، والخلاف بين معنى الاسم والمسمى مما هو مدون في كتب اللغة والمعاجم.

ولم تخل نظرة ابن القيم في هذا الموضوع عن نظم هذه الأسماء شعراً ضمّنه كتاب «الكافية في بيان عقيدة أهل السنة» وغيرها من الطرائف اللغوية والتفسيرية، والنكت البلاغية، واللمحات المشرقة، مما يعزّ وجودها في غيره من المؤلفات.

وأخيراً؛ فالقارئ يرى أن الكتاب فيه فقه، وتشريع، وتفسير، وشرح حديث، وكلام عن العقائد، وتوحيد إسلامي حق، وهو كتاب تهذيب وأخلاق، فوق ما به من استطرادات لغوية وأدبية نافعة، يُروى فيها بعض المأثور من الشعر أو النثر.



منهج ابن القيم في هذا الكتاب

بين ابن القيم في هذه الفصول النفيسة - التي أمتع بها كل قارئ - أن الحق - الذي هو غاية خلق السموات والأرض - هو أيضاً غاية، تريد من العباد أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فيكون تجلّي الأسماء الحسنى في كل باب وفي كل فصل باعثاً على التوحيد الخالص لله، وعلى العبودية المطلقة من العباد.

فمدار الآيات القرآنية حول خلق العالم: معرفة العباد كمال قدرته، وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته، ومعرفة أسمائه وصفاته، وتوحيده.

وسرُّ هذه الأبحاث التي أبدعها ابن القيم أنها ربطت بين معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وبين طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات، وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد، والمعاد، والنبؤات... وكذلك في الاستدلال بالخلق على الخالق، وما أخبرت به الرسل الكرام عنه سبحانه من أسمائه، وصفاته، وتوحيده، ولقائه، ووجود ملائكته.

وهذا - بلا شك - باب عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة.

والحديث عن أسماء الله الحسنى وصفاته أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

والكتاب بعد هذا، صورة ورسالة، يقوم على منهج وغاية، في دقة

وأمانة، وبراعة علمية، وكفاءة فنية، يزيّنه ويجلّيه: أسلوب عبقرى، فيه إشراق، ومرونة، لا يعرف الحشو ولا التطرف، ولا البهرج المتكلف، بل يقصد إلى غايته، بأرشف الكلمات وأحلاها وأعلاها، وإن تميز بالاستطراد أو التّطويل لكنه ضمن الهدف والمنهج الذي ابتغاه المؤلف ابن القيم رحمه الله، بأسلوبه، وشخصيته، وعلمه، واستنباطه، واجتهاده. فهو يُسخر كل ملكاته ليقدم لنا في هذا الكتاب - وفي كتبه كلها - المعرفة الصحيحة لدين الإسلام، في صورة متكاملة من حديث عن محاسن الشريعة، وأصول العقيدة، ومبادئ العبادة وأسرارها، وهدى المصطفى ﷺ، وهو منهج في التّأليف قلّ نظيره في العلماء قديماً وحديثاً.



مضمون الكتاب

كانت الأفكار المبثوثة في هذا الكتاب تتوزع على ثلاثة أبواب، هي:

١ - معرفة أسماء الله الحسنى.

٢ - تقسيم أسماء الله الحسنى.

٣ - دلالة أسماء الله الحسنى.

ويمكن أن نعرض لمضمون الكتاب وفق النقاط التالية:

● تحدّث الكتاب عن أسماء الله جل ثناؤه، وصفاته التي دلّ كتابُ الله على إثباتها، أو دلّت عليها سنّة رسول الله ﷺ، أو دلّ عليها إجماعُ سلف هذه الأمة.

● كلّ صفةٍ جاء بها الكتابُ، أو صحّت بأخبار التواتر، أو رُويت من طريق الآحاد وكان لها أصلٌ في الكتاب، فإنّنا نقولُ بموجِبها، ونجريها على ظاهرها دون تكييف.

● التنبيه على إطلاق ما لا يجوزُ على الله سبحانه، وما لا يليق بصفاته.

● بيان حقيقة الأسماء الحسنى من المعاني اللغوية الواسعة؛ من صرفٍ، واشتقاق، وفقه لغة...

● نفي التشبيه عن الله تعالى جدّه.

● يذكر ابنُ القيم ما فهمه الصحابةُ والتابعون من معاني أسمائه تعالى، وصفاته، وما اعتقدوه ممّا يليقُ بجلاله.

● التنبية على أن ما يُسند إلى الله تعالى من صفاتٍ ليس معناها من الله كمعناها من العباد، وأن ما يتعارفه الناس من نعوت بني آدم غير جائزٍ على الله عزَّ وجلَّ.

● ذكر أسماء الله الواردة في سائر أحاديث رسول الله ﷺ نصًّا، أو دلالةً.

● أسماء الله الحسنی من الضوابط التي يلزم الإنسان معرفتها، والاعتراف بها.

● لا ينبغي أن يُدعى ربنا جلَّ جلاله باسم المُدِلِّ حتى يُقال معه المعزَّ، وكذلك لا ينبغي أن يُدعى باسم القابض حتى يُقال معه الباسط، ولا يُدعى بالضرار حتى يُقال معه النافع.

● يذكر سبحانه علمه عند شهادته، وقدرته عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رُسُلِهِ، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسَمَعَهُ عند دعائه، ومسألته وعزَّته وعِلمَهُ عند قضائه وقدرته.

أصل هذا الكتاب

وفقنا الله ويسّر لنا - وكلّ ميسّر لما خلق له - أن نخرج أمّات كتب الإمام ابن القيم^(١)، وأن ندرس مذهبه وآراءه النحوية^(٢)، وأن نبين إسهاماته العديدة في علوم الشريعة، فكان لزاماً علينا أن ننقّب عن حديث ابن القيم في كتبه المطبوعة كلها، وأن نستخرج منها كلّ ما يتعلق بهذا الموضوع الجليل المفيد: شرح الأسماء الحسنی، ذلك أن أغلب المترجمين لابن القيم كابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» وابن العماد في «شذرات الذهب» والداؤدي في «طبقات المفسرين» ذكروا هذا الكتاب لابن القيم ضمن تراجمهم.

ولمّا لم نعثر على أصل مخطوط لهذا الكتاب، ولم نجد له أثراً، حاولنا جمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع من كتبه المطبوعة؛ لعله يفي إن شاء الله بأمنية ابن القيم نفسه.

فابن القيم - رحمه الله - قد عني عناية تامة بهذا الحديث، وأهميته في علم التوحيد - أعلى علوم الشريعة الإسلامية - وكانت أمنيته أن يخرج

(١) حقّ يوسف بديوي بعضاً من كتب ابن القيم، وهي: الداء والدواء، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، والروح، وطريق الهجرتين، والوابل الصيب. كما صدر له كتاب: يوم الجمعة، وفيه نصوص مختارة لابن القيم من كتابه «زاد المعاد».

(٢) انظر كتاب: «ابن قيم الجوزية وآراءه النحوية» إعداد: أيمن الشوا.

كتاباً جامعاً شاملاً لشرح الأسماء الحسنی؛ إذ قال: «وعسى الله أن يعين
بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنی مراعيّاً فيه أحكام هذه القواعد،
بريثاً من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو
الفضل العظيم».

عملنا في هذا الكتاب

انصبَّ عملنا في هذا الكتاب وفق الخطوات التالية:

- ١ - إحصاء كتب ابن القيم المطبوعة.
 - ٢ - استخراج ما يتعلَّق بالحديث عن أسماء الله الحسنی منها.
 - ٣ - توزيع هذه المادة وفق الأسماء والصفات.
 - ٤ - توزيع فقرات النص.
 - ٥ - تخريج الآيات من أماكنها من السور القرآنية.
 - ٦ - تخريج الأحاديث الواردة من مظانها الحديثية.
 - ٧ - التعليق على بعض المواطن من كُتُب ابن القيم وغيره.
 - ٨ - كتابة مقدمة مهمّة تتحدّث عن التدوين في أسماء الله الحسنی، مع بيان منهج ابن القيم في هذا الكتاب، ولعله بهذا التحقيق سيكون من أغنى الكُتُب التي تحدّثت عن أسماء الله الحسنی، فهو موسوعة مفيدة تشمل ما يعرّف في ذهن القارئ حول هذا الموضوع، وفق عقيدة صحيحة، مبتناها: كتاب الله، وسُنّة رسوله ﷺ.
 - ٩ - صنّع فهرس علمية مفيدة.
- وإننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا ببركة أسمائه تعالى، إنه نعم المولى، ونعم النصير.
- اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المحققان

يوسف أيمن

دمشق في ١٤/٥/١٤١٦ هـ

٨/١٠/١٩٩٥ م

الباب الأول

معرفة أسماء الله الحسنى

الفصل الأول: معرفة أسماء الله وصفاته.

الفصل الثاني: أصول الأسماء الحسنى.

الفصل الثالث: مقتضيات الأسماء الحسنى.

الفصل الرابع: التوسل بأسماء الله الحسنى.

الفصل الخامس: الأدب في مراعاة الأسماء الحسنى.

الفصل السادس: تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر.

الفصل السابع: تجليات الرب تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الفصل الثامن: دلالة أسمائه الحسنى على ذاته وتوحيده.

الفصل التاسع: آيات الأحكام وآيات الصفات الحسنى.

الفصل العاشر: لا تأويل في آيات الصفات الحسنى.

الفصل الأول معرفة أسماء الله وصفاته

إنَّ العِلْمَ بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه، مراد لذاته، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض، ونزل الأمر بينهن، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ أَنتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحديته تعالى، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها^(١).

شواهد الصفات من الكتاب والسنة:

وشواهد الصفات هي التي تشهد بها، وتدل عليها؛ من الكتاب والسنة، وشهادة العقل والفطرة وآثار الصنعة. فإذا تمكّن العبد في التوحيد علم أن الحق سبحانه هو الذي علّمه صفات نفسه بنفسه، لم يعرفها العبد من ذاته، ولا بغير تعريف الحق له، بما أجراه على قلبه من معرفة تلك الشواهد، والانتقال منها إلى المشهود المدلول عليه. فهو سبحانه الذي

(١) مفتاح السعادة (٢/٢٠٧).

شهد لنفسه في الحقيقة؛ إذ تلك الشواهد مصدرها منه. فشهد لنفسه بنفسه؛ بما قاله وفعله وجعله شاهداً لمعرفته، فهو الأول والآخر، والعبد آلة محضة، ومنفعل ومحلٌ لجريان الشواهد، وآثارها وأحكامها عليه ليس له من الأمر شيء. فهذا معنى إرسال الصفات على الشواهد، فإذا أرسلها عليها تبين له أن الحكم للصفات دون الشواهد، بل الشواهد هي آثار الصفات، فهذا وجه.

وجه ثان أيضاً. وهو: أن الشواهد بوارق وتجليات تبدو للشاهد. فإذا أرسل الصفات على تلك الشواهد توارى حكم تلك البوارق والتجليات في الصفات، وكان الحكم للصفات، فحينئذٍ يترقى العبد إلى شهود الذات شهوداً علمياً عرفانياً^(١).

العلم بالله وبأسمائه وصفاته أجلّ العلوم:

إن شرف العلم تابع لشرف معلومه؛ لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته، وعظم النفع بها. ولا ريب أن أجلّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله، الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السموات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله.

ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلّ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات. وكما أن العلم به أجلّ العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦٤).

تحقق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده.

ولا ريب أنّ كمال العلم بالسبب التام وكونه سبباً يستلزم العلم بمسببه، كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله، وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه، والمفعول إلى فاعله، فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه، فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه، والعلم به أصل كل علم ومنشؤه، فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] (١).

فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومغاده، فصار معطلاً مهملاً، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه؛ لبقائها على هداها الذي أعطاه إياه خالقها، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها، وما تكمل به، وتزكو به، وتسعد به في معاشها ومغادها (٢).

فإذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل والبقاء والفعل، وعجز مَنْ سواه عن القدرة على إيجاد ذرة أو جزء من ذرة، وأنه لا وجود له من

(١) قال الزجاج في تفسير الآية ما نصه: «نسوا الله: تركوا ذكره وما أمرهم به، فترك الله ذكرهم بالرحمة والتوفيق». (معاني القرآن: الزجاج ١٤٩/٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (٨٦/٢).

نفسه، فوجوده ليس له، ولا به، ولا منه. وتوالي هذا العلم عن القلب يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر، كما سقط غناه وربوبيته وملكوته وقدرته، فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمذكور، كما كان وحده هو الخالق المالك، الغني الموجود بنفسه أزلاً وأبدأً، وأما ما سواه فوجوده، وتوابع وجوده، عارية ليست له، وكلّما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه^(١).

وأعظم الناس حظاً في معرفة الله معترف بأنه لا يحصي ثناءً عليه سبحانه، وأنه فوق ما يشي عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحةً وإن أطنبوا، إن الذي فيك أعظم
لك الحمد كلُّ الحمد، لا مبدأ له ولا منتهى، واللَّهُ بالحمد أعلم^(٢)
الإيمان بالصفات العليا أساس الإسلام:

ولا يستقر للعبد قدم في المعرفة — بل ولا في الإيمان — حتى يؤمن بصفات الربّ جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حدّ الجهل برّبّه. فالإيمان بالصفات وتعرّفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان. فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان.

وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦٣).

(٢) المصدر السابق (٣/٢٥٤).

كَبِيرًا مِمَّا سَمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكَ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظَّانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

ولم يجرء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. ووجدت صفاته وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك، فالمعطلُّ شرٌّ من المشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والظعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل كل شرك في العالم أصله التعطيل^(١).



الفصل الثاني

أصول الأسماء الحسنی

إن كمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام، فإن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ يتضمن الأصل الأول، وهو

(١) مدارج السالكين (٣/٣٤٧).

معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله .

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنی، وهي اسم الله والرب والرحمن؛ فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا .

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته .

وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهدأيته .

وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل، فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته .

والنعمة والرحمة من لوازم الربوبية، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات إلهيته . فهو الإله الحق وإن جحد الجاحدون وعدل عنه المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز

من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت
درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان^(١).

اتفاق جميع النبوات على أصول العقيدة:

اتفقت جميع النبوات على التوحيد؛ الذي يقوم على أصول:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه،
ولا نَدَّ، ولا ضد، ولا وزير، ولا مشير، ولا ظهير، ولا شافع إلا من بعد
إذنه.

الثاني: أنه لا والد له، ولا ولد، ولا كفؤ، ولا نسيب بوجه من
الوجوه، ولا زوجة.

الثالث: أنه غني بذاته، فلا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى شيء
مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه.

الرابع: أنه لا يتغير، ولا تعرض له الآفات؛ من الهرم، والمرض،
والسنة، والنوم، والنسيان، والندم، والخوف، والهم، والحزن ونحو
ذلك.

الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، بل ليس كمثل شيء، لا
في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يحلّ في شيء من مخلوقاته، ولا يحل في ذاته شيء
منها، بل هو بائن عن خلقه بذاته، والخلق بائون عنه.

السابع: أنه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وفوق كل
شيء، وعالٍ على كل شيء، وليس فوقه شيء ألبتة.

(١) الفوائد (١٩ - ٢٠).

الثامن: أنه قادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء يريد، بل هو الفعّال لما يريد.

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفرّج الحاجات، ويرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسماوات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم، ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل، ولا يتلاشى، ولا يعدم، ولا يموت.

الثالث عشر: أنه المتكلم، الأمر الناهي، قاتل الحق، وهادي السبيل، ومرسل الرسل، ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ومجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد.

الخامس عشر: أنه تعالى صَمَدٌ بجميع الصمدية، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته.

السادس عشر: أنه قدّوس سلام، فهو المبرأ من كل عيبٍ وآفةٍ ونقصٍ.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.
الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم، ولا يخاف عباده منه ظلماً.

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً^(١).
مشهد الأسماء والصفات:

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، وارتباطه بها، وإن كان العالم — بما فيه — من بعض آثارها ومقتضياتها.

وهذا من أجلّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماء أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتضى وفعل: إما لازم، وإما متعدد، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن

(١) هداية الحيارى (٢١٦ - ٢١٧).

صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماءه حسنى؛ ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقّه، ولهذا ينكر سبحانه على من عطّله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به وإلى ما يتنزه عنه، وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حقّ قدره، ولا عظّمه حقّ تعظيمه، كما قال تعالى في حقّ منكري النبوة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى في حقّ منكري المعاد والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال في حقّ من جوّز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّخْتَلِفُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به، تاباه أسماءه وصفاته.

وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ١١٦ - ١١٥] عن هذا الظن والحسبان؛ الذي تاباه أسماءه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته؛ إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سُدَى مهملاً معطلاً، لا يُؤمّر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك.

وكذلك اسمه «الملك»، واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، بل حقيقة «الحياة» الفعل، فكل حي فعال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرثياً. واسمه «الخالق» يقتضي مخلوقاً، وكذلك «الرزاق». واسمه «الملك» يقتضي مملكة وتصرفاً وتديبياً، وإعطاءً ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البرّ» المحسن، المعطي، المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا، فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التوّاب، العفو» فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بدّ من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يُعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه؛ إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كإقتضاء اسم «الخالق، الرزاق، المعطي، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والربُّ تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عَفُوٌّ يحبّ العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمّدُ به نفسه ويحمّده به أهل سمواته وأهل أرضه ما هو من موجبات كماله، ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلّات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنایات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد

قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِنْ تَعَدَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغاياتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عبادته بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبئهم له بأسمائه الحسنی؛ إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً.

وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلَعُ عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد» والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو

سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته؛ فهو «عليم» يحب كل عليم، «جواد» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حَيّ» يحب الحياء وأهله، «بَرّ» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم. فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خَلَقَ من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له؛ ليرتب عليه المحبوب له المرضي له، فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب:

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبباً مما مثله سبب والأسباب — مع مسيبتها — أربعة أنواع: محبوب يفضي إلى محبوب، ومكروه يفضي إلى محبوب، وهذان النوعان عليهما مدار أفضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث: مكروه يفضي إلى مكروه. والرابع: محبوب يفضي إلى مكروه. وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه؛ إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره — الذي ما خلق ما خلق، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها — لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له. والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له.

فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له، موصلة إلى الإحسان، والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل؛ فاجتماع العدل والفضل أحبّ إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيهما من كمال الملك

والحمد، وتنوع الشاء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه؟
قيل: هذا سؤال باطل، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي
يقدر في الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب، وحكم
الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم، بل قد يكون مبغوضاً للرب
تعالى لمنافاته حكمته، فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له، كان نسبة له
إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل؛ فإنه مزلة أقدام، ومضلة
أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقلّ الخلاف.

وهذا المشهد أجلّ من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما
أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها، والله الموفق والمعين^(١).



الفصل الثالث

مقتضيات الأسماء الحسنى

إن كلّ آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإنّ
القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي
الخبري. وإما دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من
دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه
وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته^(٢).

فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية

(١) مدارج السالكين (١/٤١٧).

(٢) المصدر السابق (١/٤٥٠).

والأمر، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكلّ صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطّرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع والعتاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً.

ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يُرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزّه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها. وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها؛ لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم ولا تشينه معصيتهم.

وتأمل قوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي

فتنفعوني»^(١) ذكر هذا عقب قوله: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم».

فتضمن ذلك أن ما يفعله تعالى بهم في غفران ذلتهم وإجابة دعواتهم وتفريج كرباتهم ليس لجلب منفعة منهم، ولا لدفع مضرة يتوقعها منهم، كما هو عادة المخلوق الذي ينفع غيره ليكافئه بنفع مثله، أو ليدفع عنه ضرراً، فالرب تعالى لم يحسن إلى عباده ليكافئوه، ولا ليدفعوا عنه ضرراً، فقال: «لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني» إني لست إذا هديت مستهديكم، وأطعمت مستطعمكم، وكسوت مستكسيكم، وأرويت مستسقيكم، وكفيت مستكفيكم، وغفرت لمستغفركم؛ بالذي أطلب منكم أن تنفعوني، أو تدفعوا عني ضرراً، فإنكم لن تبلغوا ذلك وأنا الغني الحميد، كيف والخلق عاجزون عما يقدرون عليه من الأفعال إلا بأقداره وتيسيره وخلقه، فكيف بما لا يقدرون عليه؟ فكيف يبلغون نفع الغني الصمد الذي يمتنع في حقه أن يستجلب من غيره نفعاً، أو يستدفع منه ضرراً، بل ذلك مستحيل في حقه!؟

ثم ذكر بعد هذا قوله: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً».

فبيّن سبحانه أن ما أمرهم به من الطاعات، وما نهاهم عنه من السيئات لا يتضمن استجلاب نفعهم، ولا استدفاع ضررهم، كأمر السيد عبده، والوالد ولده، والإمام رعيته؛ بما ينفع الأمر والمأمور، ونهيهم عما يضر الناهي والمنهى، فبيّن تعالى أنه المنزه عن لحوق نفعهم وضررهم به في إحسانه إليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به.

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم.

ولهذا لما ذكر الأصليين بعد هذا، وأن تقواهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه شيئاً، ولا ينقصه، وأن نسبة ما يسألونه كلهم إياه فيعطيههم إلى ما عنده كلا نسبة، فتضمن ذلك أنه لم يأمرهم ولم يحسن إليهم بإجابة الدعوات وغفران الزلات وتفريج الكربات؛ لاستجلاب منفعة ولا لاستدفاع مضرة، وأنهم لو أطاعوه كلهم لم يزيدوا في ملكه شيئاً، ولو عصوه كلهم لم ينقصوا من ملكه شيئاً، وأنه الغني الحميد، ومن كان هكذا فإنه لا يتزين بطاعة عباده ولا تشينه معاصيهم، ولكن له من الحكيم البوالغ في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته. ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التي لا تحصى بحسب قواهم وطاقاتهم، لا بحسب ما ينبغي له، فإنه أعظم وأجلّ من أن يقدر خلقه عليه، ولكنه سبحانه يرضى من عباده بما تسمح به طبائعهم وقواهم، فلا شيء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم، ولا أنفع للعبد منه.

فهذان مسلكان في حسن التكليف والأمر والنهي:

أحدهما: يتعلق بذاته وصفاته، وأنه أهل لذلك، وأن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحب والذل والطاعة له.

والثاني: متعلق بإحسانه وإنعامه، ولا سيما مع غناه عن عباده وأنه إنما يحسن إليهم رحمةً منه وجوداً وكرماً، لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة^(١).

وإذا اعتبرت اسمه (الحي) وجدته مقتضياً لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه

(١) مفتاح السعادة (٢/١٩٧).

(القيوم) مقتضٍ لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقرّ بذلك ألحد في أسمائه، وعطلّ حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق^(١).

والتوكُّل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى؛ فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فله تعلق باسم «الغفار»، والتوَّاب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح»، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن». وتعلق باسم «المُعزّ، المذلّ، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى^(٢).

والمراقبة هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير»، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبّد بمقتضاها حصلت له المراقبة. والله أعلم^(٣).

ويوجب هذا المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها؛ فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها، داعٍ بها. قال الله تعالى:

(١) التبيان (ص ١٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢/٦٦).

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنی؛ التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي.

اقتضاء أسماء الله الحسنی لمسمياتها ومتعلقاتها:

فالله حكيم كريم، جواد ماجد، محسن ودود، صبور شكور، يُطاع فيشكر، ويُعصى فيغفر، لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، ولا أحد أحب إليه المدح منه، ولا أحد أحب إليه العذر منه، ولا أحد أحب إليه الإحسان منه. فهو محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، جميل يحب الجمال، طيب يحب كل طيب، نظيف يحب النظافة، عليم يحب العلماء من عباده، كريم يحب الكرماء، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، بر يحب الأبرار، عدل يحب أهل العدل، حسي ستيبر يحب أهل الحياء والستر، غفور عفو يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم، صادق يحب الصادقين، رفيق يحب الرفق، جواد يحب الجود وأهله، رحيم يحب الرحماء، وتر يحب الوتر، ويحب أسماءه وصفاته، ويحب المتعبدين له بها، ويحب من يسأله ويدعوه بها، ويحب من يعرفها ويعقلها وأثنى عليه بها ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «لا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أغبر من الله من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»^(١).

وفي حديث آخر صحيح: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله،

(١) رواه البخاري (٧٤٠٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿ويحذرکم الله نفسه﴾، ومسلم (٢٧٦٠) في التوبة، باب: غيرة الله تعالى.

يَجْعَلُونَ لَهُ وِلْدَانًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»^(١).

ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت، ولما كان سبحانه يحب أسماءَهُ وصفاته كان أحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها.

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقراء آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام، ورأى سريان آثارها فيهما وعلم - بحسب معرفته - ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله، وما لا يليق، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله، فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به، فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته. فإذا رأى في بعض الأحكام جوراً وظلماً أو سفهاً وعبثاً ومفسدة أو ما لا يوجب حمداً وثناءً علم أنه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنه بريء منه ورسوله، فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفه، وإنما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه أرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة وأمه الأمة المرحومة،

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩) في الأدب، باب: الصبر في الأذى، ومسلم (٢٨٠٤) في

صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل.

«على أذى»: المراد بالأذى أذى رسله سبحانه وصالحه عباده؛ لاستحالة

تعلق أذى المخلوقين به، لكونه صفة نقص؛ وهو منزّه عن النقص. انظر: فتح

الباري (١٣/٣٦٠ - ٣٦١).

وذلك كله موجب أسمائه الحسنی وصفاته العلیا وأفعاله الحمیة، فلا یخیر عنه إلا بحمده ولا یثنی علیه إلا بأحسن الثناء كما لا یسمى إلا بأحسن الأسماء^(١).

أسلوب الثناء على الله بأسمائه الحسنی:

إن الثناء على الله عامة ما یجیء مضافاً إلى أسمائه الحسنی الظاهرة دون الضمیر، إلا أن یتقدم ذكر الاسم الظاهر فیجیء بعده المضممر، وهذا نحو قول المصلي: ﴿الحمد لله رب العالمین * الرحمن الرحیم * مالك يوم الدين * إياك نعبد﴾ وقوله في الركوع: «سبحانَ ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى»، وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنی هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأتى بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي یثنی به ولأجله عليه تعالى، ولفظ الضمیر لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولا بد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتى بالاسم الظاهر مقروناً بمیم الجمع الدالة على جمع الأسماء والصفات، نحو قوله في رفع رأسه من الركوع «اللهم ربنا لك الحمد»، وربما اقتصر على ذكر الرب تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى، فتأمله فإنه لطيف المنزع جداً.

وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة: اللهم، كما في سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك»^(٢) الحديث.

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٨ - ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦) في الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، والترمذي (٣٣٩٣) في الدعوات، باب: (١٥)، والنسائي (٢٧٩/٨).

وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا
 فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾
 [الأعراف: ٢٣] وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:
 ١٦] وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:
 ٤٧].

وكان النبي ﷺ يقول بين السجدين: «رب اغفر لي، رب اغفر
 لي»^(١). وسرّ ذلك أن الله تعالى يُسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه
 وتربيته عبده وإصلاح أمره، ويشئ عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له
 من الصفات العلى والأسماء الحسنى. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما
 ذكرت لك.

فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثلة، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد
 يجيء إلا مُصَدَّرًا باسم الرب. وأما الثناء فحيث وقع فمُصَدَّرٌ بالأسماء
 الحسنى. وأعظم ما يصدر به اسم الله جل جلاله نحو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
 حيث جاء، ونحو: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وجاء ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ
 الْعَرْشِ﴾ [الصفات: ١٨٠]. ونحوه: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
 [الحديد: ١] حيث وقعت. ونحو: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:
 ٥٤]. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

(١) رواه أبو داود (٨٧٤) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده،
 وابن ماجه (٨٩٧) في الإقامة، باب: ما يقول بين السجدين، والنسائي
 (٢/٢٣١)، والحاكم (١/٢٧١) لكن دون تكرار «رب اغفر لي»، وصححه،
 ووافقه الذهبي.

الْفَرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴿ [الفرقان : ١] ونظائره .

وجاء في دعاء المسيح : ﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة : ١١٤] فذكر الأمرين ولم يجيء في القرآن سواه، ولا رأيت أحداً تعرّض لهذا ولا نبّه عليه . وتحتة سرٌّ عجيب دالّ على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له ، فإن هذا السؤال كان عُقِيب سؤال قومه له ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة : ١١٢] فخوّفهم بالله ، وأعلّمهم أنّ هذا مما لا يليق أن يُسأل عنه، وأن الإيمان يرده، فلما ألحوا في الطلب، وخاف المسيح أن يداخلهم الشكّ إن لم يجابوا إلى ما سألوا بدأ في السؤال باسم (اللهم) الدالّ على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوّره بصورة المثني الحامد الذّاكر لأسماء ربه المثني عليه بها .

وإن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يشني على الرب بذلك، ويمجده به، ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهاناً على صدق رسوله، فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه، فأتى بالاسمين : اسم الله الذي يشني عليه به، واسم الرب الذي يدعى ويُسأل به؛ لما كان المقام مقام الأمرين .

فتأمل هذا السرّ العجيب، ولا ينبُ عنه فهمك، فإنه من الفهم الذي يؤتاه الله من يشاء في كتابه، وله الحمد^(١) .



(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٤ - ١٩٥) .

الفصل الرابع التوسل بأسماء الله الحسنى

إنَّ التوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته أحب إليه، وأنفع للعبد من التوسل إليه بمخلوقاته، وكذلك سائر الأحاديث، كما في حديث الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأنَّ لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»^(١).

وفي الحديث الآخر: «أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق»^(٣).

وكلها أحاديث صحاح رواها ابن حبان والإمام أحمد والحاكم. وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري»^(٤) يجمع أصليين: الحياة والنور، فإن الربيع هو المطر الذي يحيي الأرض فينبت الربيع،

(١) رواه أبو داود (١٤٩٥) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٥٤٤) في الدعوات، باب: (١٠٠)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٥٨) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، وأحمد (٣/١٢٠، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥).

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٣) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٤٧٣) في الدعوات، باب (٦٣)، وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه (٣٨٥٧) في الدعاء، باب: اسم الله الأعظم، وأحمد (٥/٣٤٩ و٣٦٠).

(٣) رواه أحمد (٤/٢٦٤)، والحاكم (١/٥٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/٢١٣).

(٤) رواه أحمد (١/٣٩١، ٤٥٢)، والحاكم (١/٥٠٩).

فيسأل الله بعبوديته وتوحيده وأسمائه وصفاته أن يجعل كتابه، الذي جعله روحاً للعالمين ونوراً وحياة لقلبه، بمنزلة الماء الذي يحيي به الأرض، ونوراً له بمنزلة الشمس التي تستنير بها الأرض والحياة، والنور جماع الخير كله، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

فأخبر أنه روح تحصل به الحياة، ونور تحصل به الحياة، ونور تحصل به الهداية، فأتباعه لهم الحياة والهداية، ومخالفوه لهم الموت والضلال^(١).



الفصل الخامس

الإدب في مراعاة الأسماء الحسنی

اعلم أنه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها؛ فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وإرادة اليسر لا العسر كما قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] وإرادة التوبة لله وإرادة الميل لمبتغي الشهوات. وقوله تعالى: ﴿مَا

(١) شفاء العليل (ص ٢٧٧).

يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَليُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [المائدة: ٦].

وكذلك الكلام؛ يصف نفسه منه بأعلى أنواعه، كالصدق والعدل
والحق، وكذلك الفعل يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة
والمصلحة والنعمة.

وهكذا المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] و﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل
عمران: ١٤٦].

ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام
ونحوها، فإن مسمى المحبة أشرف وأكمل من هذه المسميات، فجاء في
حقه إطلاقه دونها.

وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعانٍ تنزه تعالى عن الاتصاف
بها، وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظاً
مما لم يطلقه؛ فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف، والكريم الجواد
أكمل من السخي، والخالق البارئ المصور أكمل من الصانع الفاعل،
ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى، والرحيم الرؤوف أكمل من
الشفيق.

فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات
والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقاً
لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذٍ فيطلق المعنى لمطابقتها له دون اللفظ، ولا
سيما إذا كان مجملاً أو منقسماً إلى ما يمدح به، وغيره فإنه لا يجوز

إطلاقه إلاً مقيداً، وهذا كلفظ (الفاعل) و(الصانع)، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً أطلقه على نفسه كقوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ﴿وَفَعَلَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم.

ولهذا المعنى - والله أعلم - لم يجيء في الأسماء الحسنى (المريد) كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم ولا الأمر الناهي؛ لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكلماتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يُعلم غلط بعض المتأخرين وزكّله الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً فأدخله في أسمائه الحسنى! فاشتق له اسم الماكر، والخادع، والفاتن، والمضل، والكاتب، ونحوها من قوله: ﴿وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن قوله: ﴿لِفَتْنِهِمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وهذا خطأ من وجوه:
أحدها: أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أن مسمى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به، وإلى ما يذم، فيحسن في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه في موضع، ويقبح في موضع، فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى بها سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهي التي يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سُمِّي بهذه الأسماء، وقيل له هذه مدحتك وثناءً عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة، والله المثل الأعلى سبحانه^(١).



الفصل السادس

تنزيه الأسماء الحسنى عن الشر

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَنِكَ الْمُلْكُ تُوْفِي الْمُلْكُ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكُ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه سبحانه هو الذي يؤتیه من يشاء، وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول تفرده بالملك، والثاني تفرده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يُعزِّزُ من يشاء بما يشاء من أنواع العز ويزل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحدٍ معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير، فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شرّاً بالنسبة إلى المسلوب الدليل؛ فإن هذا التصرف

(١) طريق الهجرة (ص ٤٠٤).

دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به، كما يحمد ويثنى عليه بتزييه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «ليك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»^(١) فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بكل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً كما سيأتي بيانه، وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله وخلقه، وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللاتقة بها، وذلك خير كله، والشر: وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شراً، فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماءه الحسنی تشهد بذلك^(٢).

معاني قوله ﷺ «والشر ليس إليك»:

إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه، ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه، وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته، ولذلك لا يسمى بالمعاقب والمعذب، بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه، وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَا

(١) رواه مسلم (٧٧١) في صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، والترمذي (٣٤٢٢) في الدعوات، باب: (٣٢)، والنسائي (١٣٠/٢) في الافتتاح.

(٢) شفاء العليل (ص ١٧٨ - ١٧٩).

عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومثلها في آخر الأنعام، فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها، ولاسيما إذا كان محبوباً له، وهو غاية مطلوبة في نفسها، وأما الشر الذي هو العذاب فلا يدخل في أسمائه وصفاته، وإن دخل في مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال وفني، بخلاف الخير فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفة أبداً، وهو قديم الإحسان أبدي الإحسان، فلم يزل ولا يزال محسناً على الدوام، وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال معاقباً على الدوام، غضبان على الدوام، منتقماً على الدوام. فتأمل هذا الوجه تأمل فقيه في باب أسماء الله وصفاته، يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته.

يوضحه قول أعلم خلقه به، وأعرفهم بأسمائه وصفاته «والشرُّ ليس إليك» ولم يقف على المعنى المقصود من قال: الشرُّ لا يتقرب به إليك، بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه، وصفاته كلها صفات كمال يحمد عليها ويشئ عليه بها، وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة لا شر فيها بوجه ما، وأسمائه كلها حسنى، فكيف يضاف الشر إليه؟ بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته، وهو منفصل عنه، إذ

فعله غير مفعوله، ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر، وإذا كان الشر مخلوقاً منفصلاً غير قائم بالرب سبحانه، فهو لا يضاف إليه، وهو ﷺ لم يقل أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله، وإنما نفى إضافته إليه وصفاً وفعلاً واسماً^(١).



الفصل السابع

تجليات الرب تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلی

لا ريب أن الله وصف نفسه بصفات، وسمى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، وأخبر أنه يحب ويكره، ويمقت ويرضى، ويغضب ويسخط، ويجيء ويأتي، وينزل إلى سماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه، وأن له علماً وحياة، وقدرة وإرادة، وسمعاً وبصراً ووجهاً، وأن له يدين، وأنه فوق عباده، وأن الملائكة تعرج إليه وتنزل بالأمر من عنده، وأنه قريب، وأنه مع المحسنين ومع الصابرين ومع المتقين، وأن السموات مطويات بيمينه. ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك، وأن قلوب العباد بين أصابعه وغير ذلك.

وإذا تجلّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعينته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكّل عليه والتفويض إليه والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده وقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه، والتوكّل معنى يلتزم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به، ويختاره له.

(١) حادي الأرواح (ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكوره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزّه في عفوه، وحكمته في قضاؤه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله وانتقامه وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن، وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين؛ أشهدك ملكاً قيوماً فوق سمواته على عرشه، يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويشيب ويعاقب، ويمنع ويعز، ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعّال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزّه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا

بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع^(١).



الفصل الثامن

دلالة أسمائه الحسنی علی ذاته وتوجیهه

إن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه وتعالى، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى، وهو الذي لا يُحدُّ كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته؛ إذ لا شيء أكمل منه، وكل اسم من أسمائه، وصفة من صفاته وأفعاله دالة عليه؛ فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وعلى كل ما أمر، إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كله فضل وعدل. فإنه إن أعطى بفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

مال للعباد عليه حق واجبٌ كلاً، ولا سعي لديه ضائع

(١) الفوائد (ص ٧٠ - ٧١).

إِنْ عُدُّبُوا فَبَعْدَلَهُ، أَوْ نَعْمُوا فَبِفَضْلِهِ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ^(١)

وهو سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشرك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك، كقول هارون لعبدة العجل: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا قُنْتُم بِمِثْلِهِ وَإِنَّا لَرَجِيمُ الرَّحْمَنِ﴾ [طه: ٩٠] وقوله سبحانه في القصة: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّى يُدْعَوْنَ يَا فِرْعَوْنُ أَنحَرْنَا يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ جَاهِلُونَ﴾ [طه: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّا نَعْبُدُكَ وَنَسْتَعِينُكَ وَإِنَّا كُنَّا مِنْكَ لَدَائِبِينَ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٢] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣] فستبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنی المقضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم، حماها الله عن كل أفك معرض عن كتاب الله، واقتباس الهدى منه.

وأيضاً فإنَّ الله سبحانه يعلِّق بأسمائه المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلاماً محضة لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُلُ شَيْءَ عَلِيمٍ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥] و ﴿اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣]. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ﴿وَاللَّهُ حَكِيمٌ

(١) طريق الهجرتين (ص ٣٩١).

بِالْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴿البقرة: ١٩﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩]
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود: ١١١]
 ﴿وَاللَّهُ بِصِيرَتِكُمْ قَائِمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ١٨] ﴿إِنَّكُمْ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ
 بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧] ونظائره كثيرة.

وأيضاً فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً على ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤] (١).

دلالة الأسماء الحسنى على حكمته وقدرته عز وجل:

اعلم أن مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين من هذه الثلاثة كثيراً كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَتَلَقَىٰ الْأُتْرَاقَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١] وقال: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ١ - ٢] وقال في حم بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧] وذكر نظير هذا فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقديمه عليه، وارتباطه بحكمته

(١) جلاء الأفهام (ص ٩٥ - ٩٦).

يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة^(١).

وتأمل العبرة في موضع هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لطفه، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد، فيه جميع آياته ومصالحه، وكل ما يحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه، والأرض مهاده وبساطه وفرشه ومستقر للساكن، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمنتقل في طرق هذه الدار، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له، وضروب النبات مهياً لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه، فمنها الركوب، ومنها الحلوب، ومنها الغذاء، ومنها اللباس والأمتعة والآلات، ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم، وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه، المتصرف بفعله وأمره، ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدره أحسن تقدير، ونظمه أحسن نظام، وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإله واحد لا إله إلا هو، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما، واختل نظامهما، وتعطلت مصالحهما، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبّر له

(١) طريق الهجرتين (ص ١٢٥).

روحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث، هذا من المحال في أوائل العقول وبدائه الفطر، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].

فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقَدَحٍ صحيح، أو يأتوا بأحسنَ منهما، ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما. ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب، والبرهان الباهر، وسنفرد إن شاء الله كتاباً مستقلاً لأدلة التوحيد^(١).



الفصل التاسع

آيات الأحكام وآيات الصفات الحسنی

تنازع الناس في كثير من الأحكام^(٢)، ولم يتنازعوها في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها. وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً، وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم.

(١) مفتاح السعادة (٢/٢٠٦ - ٢٠٧).

(٢) ينظر الباب الثالث والأربعون من الإتقان في علوم القرآن.

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس. وأما آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] حتى يبين لهم بقوله (من الفجر)^(١).

ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية، وغيرها من آيات الصفات. وأيضاً فإن آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: ﴿ قَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِوَيْهٍ أَدَّى مِّن رَّأْسِيهِ ففِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكُوتٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، ونظائره كثيرة كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل^(٢).



الفصل العاشر

لَا تَأْوِيلَ فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ الْجَسَنِي

لما كان وضع الكلام للدلالة على مراد المتكلم؛ وكان مراده لا

(١) ذكر الطبري عن السدي في تفسير الآية قوله: حتى يتبين لكم النهار من الليل، ثم أتموا الصيام إلى الليل. ومثله عن ابن عباس (تفسير الطبري ١٧١/١ - ١٧٣).

(٢) مختصر الصواعق المرسله (ص ٧).

يعلم إلا بكلامه، انقسم كلامه ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو نصٌّ في مراده لا يقبل احتمالاً غيره.

الثاني: ما هو ظاهر في مراده وإن احتمل أن يريد غيره.

الثالث: ما ليس بنص ولا ظاهر في المراد، بل هو محتمل محتاج إلى البيان.

فالأول يستحيل دخول التأويل فيه، إذ تأويله كذب ظاهر على المتكلم، وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها، خصوصاً آيات الصفات والتوحيد. وأن الله مكلّم، متكلم، أمر، ناه، قائل، مخبر، موجد. حاكم، واعد، موعد، مبيّن، هادٍ، داع إلى دار السلام، وأنه تعالى فوق عباده عالٍ على كل شيء، مستوٍ على عرشه^(١)، ينزل الأمر من عنده، ويعرج إليه، وأنه فعال حقيقة، وأنه كل يوم في شأن، فعال لما يريد، وأنه ليس للخلق من دونه ولي ولا شفيع يطاع ولا ظهير، وأنه المتفرد بالربوبية والتدبير والقيومية ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] ﴿وَمَا سَقَطُ مِنْ رِزْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأه يسمع الكلام الخفي كما يسمع الجهر، ويرى ما في السموات والأرض، ولا تخفى عليه منها ذرة واحدة. وأنه على كل شيء قدير، ولا يخرج مقدور واحد عن قدرته ألبتة، كما لا يخرج عن علمه وتكوينه، وأن

(١) ذكر د. محمد سعيد رمضان البوطي حول هذه النصوص المتشابهة وما يندرج فيها من آيات الصفات قوله: «والمصير المتميّن في هذه الحالة هو تفسير هذه الألفاظ على ظاهرها مما يتفق مع تنزيه الله عز وجل عن الشبيه والشريك، وهو يتضمن الاحتراز عن تفسيرها بالجارحة والجسمية؛ فيقال مثلاً: استوى على عرشه كما قال استواء يليق بجلاله وأحديته، وله يد كما قال تليق بألوهيته وجلاله». إلخ. (السلفية مرحلة زمنية مباركة ص ١٣٢).

له ملائكة مدبرة بأمره للعالم تصعد وتنزل، وتتحرك، وتنتقل من مكان إلى مكان، وأنه يذهب بالدنيا ويخرب هذا العالم ويأتي بالآخرة، ويبعث مَنْ في القبور، إلى أمثال ذلك من النصوص التي هي في الدلالة على مرادها كدلالة لفظ العشرة والثلاثة على مدلولها، وكدلالة لفظ الشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والخيل والبغال والإبل والبقر والذكر والأنثى على مدلولها، لا فرق بين ذلك ألبتة^(١).

□ □ □

(١) الصواعق المرسلة (ص ٥٠ - ٥١).

الباب الثاني

تقسيم أسماء الله الحسنى

- الفصل الأول: ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى.
- الفصل الثاني: أسماء الله الحسنى، ونفي السلب عنها.
- الفصل الثالث: أسماء الله الحسنى وصفاته.

الفصل الأول

ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى

ما يجري صفةً أو خبيراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بُد من تضمينه ثبوتاً؛ إذ لا

كمال في العدم المحض كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة

أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه لا على معنى

مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة

من صفات الكمال، ولفظه يدلّ على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة

والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار^(١)، وأمجد الناقة علفاً.

ومنه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه

وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على

رسوله كما علمناه ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء

وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي

(١) استمجد: استفضل، أي: اشتكراً من النار؛ كأنهما أخذتا من النار ما هو حسبهما، فصلحا للاقتداح بهما. (لسان العرب مادة مجد).

وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى المتوسّل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه.

ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «الظّوا ب: إذا الجلال والإكرام»^(١).

ومنه: «اللّهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض إذا الجلال والإكرام»^(٢) فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فُتح لمن بَصَرَهُ اللهُ.

فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة كما قال^(٣):

(١) رواه أحمد (١٧٧/٤)، والترمذي (٣٥٢٥) في الدعوات، باب (٩٢)، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) سبق تخريجه ص (٤٣).

(٣) الشاعر سيرة بن عمرو الأسدي، ورواية البيت في معاني القرآن للزجاج:

لقد بكرّ الناعي بخيري بني أسد
بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد =

الابَّكَرُ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ . بعمر بن يربوع وبالسيد الصمد
والعرب تسمي أشرفها بالصمد؛ لاجتماع قصد القاصدين إليه
 واجتماع صفات السيادة فيه .

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين الوصفين بالآخر،
وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد
المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن
الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله
ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير،
والحميد المجيد، والعزیز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف^(١).



الفصل الثاني

أسماء الله تعالى، ونفي السلب عنها

صفات السلب المحض لا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون
متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام
المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلب
هو لتضمنها ثبوتاً كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]
فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ
لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته. وكذلك قوله: ﴿ وَمَا يَمْرُؤٌ عَنْ

= معاني القرآن للزجاج (٣٧٨/٥). وانظر: الأغاني ط دار الكتب (٩٢/٢٢)، خزائن
الأدب (٥٠٩/٤)، لسان العرب (حمد) والصحاح (خير).

(١) بدائع الفوائد (١٥٩/١ - ١٦٤).

رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴿ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿ لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدًا ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته وأنه جلّ عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطّرد في كلّ ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنی وصفاته العليا.

الثاني: أنّ الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع؛ فإنّ هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سمّاه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعّال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيداً أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من أسمائه الحسنی المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم^(١).

(١) إن الصحابة وعلماء الإسلام حين عدّوا الأسماء ذكروا المشتق والمضاف =

الرابع: أن أسماء الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات؛ دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماء الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يُطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يُطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع^(١).

الثامن: أن الاسم إذا أُطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا، نحو: السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ

= والمطلق في مساق واحد، إجراء على الأصل ونبدأ للقاعدة النحوية. ينظر: (أحكام القرآن لابن العربي ص ٨٠٣).

(١) قال الشهاب الخفاجي ما نصه:

«كون أسماء الله تعالى توقيفية مطلقاً هو المشهور، وفيها أقوال أخرى، فقيل التوقيف في الأسماء دون الصفات، وقيل يجوز مطلقاً ما لم توهم نقصاً، وقيل يكفي ورود مادته في لسان الشارع، والصحيح الأول». (حاشية الشهاب ٢٣٩/٤).

﴿الله﴾ [المجادلة: ١] ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَلِيدُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كان الفعل متعدياً، فإن كان لازماً لم يخبر عنه به، نحو: الحي، بل يُطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حَيٌّ.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعالة عن كماله، والمخلوق كماله عن فعالة، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالربُّ لم يزلُ كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كاملٌ بذاته وصفاته، فأفعاله صادرةٌ عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمال الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنی والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له تعالى أو أمراً، إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه. ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنی، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كلّه مصدره عن أسمائه الحسنی، وهذا كله حسنٌ لا يخرجُ عن مصالح العباد، والرفقة والرحمة بهم، والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كلّه مصلحة، وحكمة، ورحمة، ولطف، وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنی، وفعله كلّه لا يخرجُ عن العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنی، فلا تفاوت في خلقه، ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سُدى ولا عبثاً، وكما أن كلَّ موجودٍ سواء فبإيجاده، فوجودٌ من سواه تابعٌ لوجوده تبعَ المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلمُ بها أصلٌ للعلم بكل ما سواه، فالعلمُ بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع

العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصلٌ لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها.

وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتاً؛ لأنَّ الخللَ الواقعَ فيما يأمر به العبد، أو يفعله إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل، ولا تفاوت، ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدّم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، وهذا يدلُّ على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شرّ فيها؛ لأنه لو فعل الشرّ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماءه كلها حسنى، وهذا باطلٌ، فالشرُّ ليس إليه، فكما لا يدخلُ في صفاته، ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه^(١)، لا يُضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخلُ في مفعولاته.

وفرق بين الفعل والمفعول، فالشرّ قائم بمفعوله المبين له لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلّت فيه أقدام، وضلّت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

(١) هذا كما ورد في الحديث الشريف: «ليبك وسعديك والخير في يدك» رواه البخاري ومسلم.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ

بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهو مرتبتان، إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وكذلك لا يُسأل إلاّ بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقةً لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله^(١)، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة. وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن بَرَّجان^(٢) وهي: التبعيد، وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي: الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال^(٣). فمراتبها أربعة، أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة، وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال: التخلق، وأحسن منها عبارة من قال: التبعيد،

(١) ذكر الغزالي في كتابه: «المقصد الأسنى» قوله ﷺ: «تخلّقوا بأخلاق الله تعالى» وقوله: «إنَّ الله كذا وكذا خلقاً، من تخلّق بواحد منها دخل الجنة» (المقصد الأسنى ص ١٥٠) والحديث الأول غير ثابت، أما الثاني فذكر الإمام العراقي أن الطبراني رواه في الأوسط، وذكر نحوه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (ص ٣٥٧).

(٢) هو عبد السلام بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الأشبيلي الصوفي المفسر، له كتاب «تفسير القرآن»، و «شرح أسماء الله الحسنی» مات بمراكش سنة (٥٣٦ هـ) (فوات الوفيات ١/٢٧٤ ولسان الميزان ١٣/٤ والأعلام ٦/٤).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وانظر باب: السؤال بأسماء الله في كتاب: «التوحيد في صحيح البخاري».

وأحسن من الجميع: الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظائر في الأسماء التي تُطلق على الله وعلى العباد، كالحَي، والسَّمِيع، والبصير، والعليم، والقدير، والملك، ونحوها، فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد، مجاز في الرب، وهذا قولُ غلاة الجهمية، وهو أخبثُ الأقوال، وأشدّها فساداً.

الثاني: مقابله، وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قولُ أبي العباس الناشيء.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قولُ أهل السنة، وهو الصواب. واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما. وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

فألفاظ فاعل، وعامل، ومكتسب، وكاسب، وصانع، ومحدث، وجاعل، ومؤثر، ومنشئ، وموجد، وخالق، وبارئ، ومصور، وقادر، ومرید، هذه الألفاظ ثلاثة أقسام:

قسم لم يطلق إلا على الرب سبحانه كالبارئ، والبدیع، والمبدع.

وقسم لا يطلق إلا على العبد كالكاسب، والمكتسب.

وقسم وقع إطلاقه على الرب والعبد كاسم صانع، وفاعل، وعامل، ومنشئ، ومرید، وقادر.

وأما الخالق والمصور فإن استُعْمِلَا مطلقين غير مقيدین، لم يُطلقا إلا على الرب، كقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وإن استُعْمِلَا مقيدین أطلقا على العبد، كما يقال لمن قدر شيئاً في نفسه أنه خلقه، قال^(١):

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان. انظر شرح ديوان زهير =

ولأنت تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

أي: لك قدرة تمضي، وتنفذ بها ما قدرته في نفسه، وغيرك يقدر أشياء وهو عاجزٌ عن إنفاذها وإمضائها، وبهذا الاعتبار صحَّ إطلاقُ خالق على العبد في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي: أحسن المصورين والمقدرين، والعرب تقول: قدرت الأديم، وخلقته: إذا قسته لتقطع منه مزادة أو قرية ونحوها.

قال مجاهد: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين.

وقال الليث: رجل خالق، أي: صانع، وهن الخالقات، للنساء.

وقال مقاتل: يقول تعالى هو أحسن خلقاً من الذين يخلقون التماثيل وغيرها التي لا يتحرك منها شيء.

وأما الباريء فلا يصحُّ إطلاقه إلاً عليه سبحانه؛ فإنه الذي برأ الخليقة وأوجدها بعد عدمها.

الرابع عشر: أن الاسمَ والصفة^(١) من هذا النوع له ثلاث اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً إلى الرب مختصاً به.

الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتاً للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما

= (ص ٩٤)، والشاهد في كتاب سيبويه (٢/٢٨٩) وفي المنصف (٢/٧٤، ٢٣٢)،

وفي تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص ٣٦).

(١) هذه قاعدة أسسها سيبويه ليرتب عليها قانوناً من الصناعة في التصريف والجمع

والتصغير والحذف والزيادة والنسبة وغير ذلك من الأبواب، إذ لحظ ذلك في مجاري العربية.

يليق به. وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإنَّ شرطَ صحة إطلاقها حصولُ معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذورَ فيه بوجه، بل ثبتت له على وجهٍ لا يُماثلُه فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله.

ومن أثبت له على وجهٍ يُماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليقُ بجلاله وعظمته، فقد برىء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريقُ أهل السنة، وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسُّنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك.

وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به.

وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه، وكونه محمولاً به، مفتقراً إليه، محاطاً به.

كلّ هذا يجبُ نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإنَّ ما يختصُّ به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصلُ بلاء المتكلمين: آفة التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبتَّ الله الأسماء الحسنى، والصفات العُلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهمهم، فخلصت من

التشبيه، فتدبر هذا الموضع، واجعله جُتَّتَكَ التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب^(١).

الخامس عشر: أنَّ الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان.

فاللفظيان ثبوتي وسلبى، فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم، والسلبى: أن يمتنع الاشتقاق لغيره.

والمعنويان ثبوتي وسلبى، فالثبوتي: أن يعودَ حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه، والسلبى: ألا يعودَ حكمها إلى غيره، ولا يكون خبراً عنه، وهي قاعدةٌ عظيمة في معرفة الأسماء والصفات، فلنذكر من ذلك مثلاً واحداً وهو صفة الكلام، فإنه إذا قامت بمحلِّ كانت هو التكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال، وأمر، ونهى، ونادى، وناجى، وأخبر، وخاطب، وتكلم، وكلم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدلُّ بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصلُ السنة الذي ردّوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصحِّ الأصول طرداً وعكساً.

السادس عشر: أنَّ الأسماء الحسنى لا تدخلُ تحت حصر ولا تحدُّ بعدد، فإنَّ لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملكٌ مقرب، ولا نبيٌّ مرسل، كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو

(١) توسّع ابن القيم في حديثه عن إثبات الصفات ومعرفتها، ونفى التحريف، والتعطيل عن نصوصها، ونفى التمثيل والتكليف عن معانيها في كتاب «الصواعق المرسلّة»، وكتاب «مدارج السالكين» (٣/٣٨ - ٣٩).

استأثرت به في علم الغيب عندك»^(١).

فجعل أسماء ثلاثة أقسام:

قسم سَمِيَ به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه، فتعرف به إلى عباده.

وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ولهذا قال: «استأثرت به» أي: انفردت بعلمه، وليس المرادُ انفراده بالتسمي به؛ لأنَّ هذا الانفراد ثابتٌ في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «يفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن»^(٢) وتلك المحامد هي تفي بأسمائه وصفاته.

ومنه قوله ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٣).

وأما قوله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»^(٤) فالكلامُ جملة واحدة.

وقوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل. والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٩١/١، ٤٥٢).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾ ومسلم (١٩٣) (٣٢٦) في الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) رواه مسلم (٤٨٦) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، وأبو داود (٨٧٩) في الصلاة، باب: في الدعاء في الركوع والسجود.

(٤) رواه أحمد (٣٦٧/٢) ومسلم (٢٦٧٧) (٦) في الذكر والدعاء، باب: في أسماء الله تعالى، والترمذي (٣٥٠٦) في الدعوات.

يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: لفلان مئة مملوك قد أعدّهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له ممالك سواهم معدّون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه^(١).

السابع عشر: أنّ أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، وهو غالبُ الأسماء، كالقدير، والسميع، والبصير، والعزیز، والحكيم، وهذا يسوغُ أن يُدعى به مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول: يا عزيز يا حلیم، يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الأفراد والجمع. ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقروناً بمقابله، كالمانع، والضار، والمنتقم، فلا يجوزُ أن يفردَ هذا عن مقابله، فإنه مقرونٌ بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأنّ الكمالَ في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يُرادُ به أنه المنفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم، عطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً، وعفواً وانتقاماً^(٢).

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماءُ المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنعُ

(١) خالفهم ابن حزم فزعم أن أسماءه تعالى تنحصر في هذا العدد كما ذكر ابن القيم في «شفاء العليل». وقال القرطبي في «شرح الأسماء الحسنى»: له العجب من ابن حزم ذكر من الأسماء الحسنى نيّماً وثمانين فقط، والله يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ راجع المحلّي لابن حزم (٣١/٨) وأحكام القرآن لابن العربي (ص ٨٠٣).

(٢) قال الزّجاج في شرح أسماء الله (القابض والباسط): الأدب في هذين الاسمين أن يذكرهما معاً، لأن تمام القدرة بذكرهما معاً؛ وفي شرح الضار النافع: الجمع بينهما أدلُّ على القدرة وتمام الحكمة، وكذلك كلّ اسمين يؤدبان بمجموعهما عن معنى واحد. (تفسير أسماء الله الحسنى ص ٤٠، ٦٣).

فَصَلُّ بَعْضُ حُرُوفِهِ عَنِ بَعْضٍ، فَهِيَ - وَإِنْ تَعَدَّدَتْ - جَارِيَةٌ مَجْرَى الْأَسْمِ الْوَاحِدِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَجِءْ مَفْرَدَةً، وَلَمْ تَطْلُقْ عَلَيْهِ إِلَّا مُقْتَرَنَةً فَاعْلَمْ، فَلَوْ قُلْتُ: يَا مِذْلًا، يَا ضَارًا، يَا مَانِعًا، وَأَخْبِرْتُ بِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ مِثْنِيًّا عَلَيْهِ، وَلَا حَامِدًا لَهُ حَتَّى تَذَكَرَ مِقَابِلَهَا.

الثامن عشر: أَنَّ الصِّفَاتِ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

صِفَاتِ كَمَالٍ.

وَصِفَاتِ نَقْصٍ.

وَصِفَاتٍ لَا تَقْتَضِي كَمَالًا وَلَا نَقْصًا.

وَإِنْ كَانَتْ الْقِسْمَةُ التَّقْدِيرِيَّةُ تَقْتَضِي قِسْمًا رَابِعًا، وَهُوَ مَا يَكُونُ كَمَالًا وَنَقْصًا بِاعْتِبَارَيْنِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، وَمَوْصُوفٌ بِالْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ مُحْضٍ، فَهُوَ مَوْصُوفٌ مِنَ الصِّفَاتِ بِأَكْمَلِهَا، وَلَهُ مِنَ الْكَمَالِ أَكْمَلُهُ.

وَهَكَذَا أَسْمَاؤُهُ الدَّالَّةُ عَلَى صِفَاتِهِ هِيَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ وَأَكْمَلُهَا، فَلَيْسَ فِي الْأَسْمَاءِ أَحْسَنَ مِنْهَا، وَلَا يَقُومُ غَيْرُهَا مِقَامَهَا، وَلَا يُؤَدِّي مَعْنَاهَا، وَتَفْسِيرُ الْأَسْمِ مِنْهَا بِغَيْرِهِ لَيْسَ تَفْسِيرًا بِمُرَادِفٍ مُحْضٍ، بَلْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالتَّفْهِيمِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلَهُ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ كَمَالٌ أَحْسَنُ اسْمٍ، وَأَكْمَلُهُ، وَأَتَمُّهُ مَعْنَى، وَأَبْعَدُهُ وَأَنْزَهُهُ عَنِ شَائِبَةِ عَيْبٍ أَوْ نَقْصٍ، فَلَهُ مِنَ صِفَةِ الْإِدْرَاكَاتِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ دُونَ الْعَاقِلِ الْفَقِيهِ، وَالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ دُونَ السَّامِعِ وَالْبَاصِرِ وَالنَّاطِرِ، وَمِنْ صِفَاتِ الْإِحْسَانِ الْبِرِّ الرَّحِيمِ الْوَدُودِ دُونَ الرَّفِيقِ وَالشَّفُوقِ وَنَحْوَهُمَا، وَكَذَلِكَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ دُونَ الرَّفِيعِ الشَّرِيفِ، وَكَذَلِكَ الْكَرِيمِ دُونَ السَّخِيِّ، وَالْخَالِقِ الْبَارِيءِ الْمَصُورِّ دُونَ الْفَاعِلِ الصَّانِعِ الْمَشْكُلِ، وَالْغَفُورِ الْعَفْوِّ دُونَ الصَّفُوحِ السَّاتِرِ.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها، وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه، فتأمل ذلك، فأسمائه أحسنُ الأسماء، كما أنَّ صفاته أكمل الصفات، فلا تعدلُ عما سَمِيَ به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أنَّ من أسمائه الحسنَى ما يكون دالاً على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدّم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤده، وهو الله سبحانه. هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوّاً أحد، وليس كمثلته شيء، سبحانه الله الواحد القهار.

هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثيرٍ ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنَى، ففسّر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علماً بخس الاسم الأعظم حقه، وهضمه معناه، فتدبّره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدّم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

والإلحاد في أسمائه^(١) هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذٌ من الميل، كما تدلُّ عليه مادته: ل ح د. فمنه الملحد، وهو الشقُّ في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط. ومنه الملحد في الدين؛ المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابنُ السكِّيت^(٢): الملحد: المائل عن الحق، المُدْخِل فيه ما ليس منه. ومنه الملتحد، وهو مفتعل من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَجْعَدَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي: من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجىء إليه، وتبتهل إليه، فتميل إليه عن غيره. تقول العرب: التحد فلان إلى فلان؛ إذا عدل إليه.

إذا عُرِف هذا، فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمِّي الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز. وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحادٌ حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصراني له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه، ويتقدَّس من النقائص، كقول أخبث

(١) انظر في تفسير الإلحاد: جامع البيان للطبري (١٣٣/٩ - ١٣٤) ومعاني القرآن للزجاج (٣٩٢/٢) والكشاف (١٣٢/٢) وزاد المسير لابن الجوزي (٢٩٣/٣) والبحر المحيط لأبي حيان (٤٢٩/٤) وحاشية الشهاب الخفاجي (٢٣٩/٤) واللسان لابن منظور (لحد).

(٢) هو يعقوب بن إسحاق: عالم بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر، راوية ثقة، أخذ من البصريين والكوفيين، له تصانيف كثيرة في النحو ومعاني الشعر وتفسير دواوين العرب، توفي سنة ٢٤٤ هـ (بغية الوعاة ٢/٣٤٩).

اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خَلَقَ خلقه. وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ﴾ [المائدة: 64] وأمثال ذلك مما هو إلحادٌ في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً، ولغة وفطرة، وهو يقابلُ إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماء وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلّبوه صفات كماله، وجحدوها، وعطلوها، فكلاهما ملحدٌ في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي، والمتوسط، والمنكوب. وكلٌّ من جحد شيئاً عما وصّفَ الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً. فهذا الإلحادُ في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحادُ، وتفرقتُ بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسُنَّته عن ذلك كلّهُ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً. وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل. تُوقَد مصابيحُ معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء

ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهّل لنا السبيلَ إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يُوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلباً عاقلاً، ولساناً قائلًا، ومحللاً قابلاً، وإلا فالسكوت أولى بك، فجنابُ الربوبية أجلّ وأعزّ مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه المقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى مَنْ أحاط بكل شيء علماً^(١).



الفصل الثالث

أسماء الله الحسنى وصفاته

الله

اسم الله جل جلاله هو الجامع، ولهذا تُضافُ الأسماءُ الحسنى كلّها إليه، فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهذا المشهدُ تجتمعُ فيه المشاهدُ كلّها، وكلّ مشهدٍ سواه فإنما هو مشهدٌ لصفة من صفاته، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية، وقام بحقه من التعبُّد الذي هو كمالُ الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام

(١) بدائع الفوائد (١/١٥٩ - ١٧٠).

بوظائف العبودية، فقد تمّ له غناه بالإله الحق، وصار من أغنى العباد،
ولسان حال مثل هذا يقول:

غَنَيْتُ بِأَمْوَالِ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَإِنَّ الْغِنَى الْعَالِي عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ

فيا له من غنى ما أعظم خَطَرَهُ وأَجَلَ قَدْرَهُ! تضاءلت دونه الممالك فما
دونها، وصارت بالنسبة إليه كالظِّلِّ من الحامل له، والطَّيْفِ الموافي في
المنام؛ الذي يأتي به حديث النفس، ويطرده انتباه من النوم^(١).



(١) طريق الهجرتين ص (٦٨).

الرحمن الرحيم

استبعد قومٌ أن يكون (الرحمنُ) نعتاً لله من قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: الرحمن علم، والأعلامُ لا يُنعتُ بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم الله. قالوا: ويدلُّ على هذا أنَّ الرحمن علم مختصٌّ بالله لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى.

قالوا: ويدلُّ عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ١ - ٢] ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠].

وهذا شأنُ الأسماء المحضة؛ لأنَّ الصفات لا يقتصرُ على ذكرها دون الموصوف. قال السهيلي: «والبدل عندي فيه ممتنع، وكذلك عطف البيان؛ لأنَّ الاسم الأول لا يفتقر إلى تبين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ولم يقولوا: وما الله.

ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وَصْفٌ يُراد به الشناء، وكذلك الرحيم، إلا أنَّ الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه، وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية، فإنَّ التثنية في الحقيقة تضعيفٌ، وكذلك هذه الصفة، فكانَ غضبان وسكران حاملٌ لضعفين من الغضب والسكر، فكان اللفظُ مضارعاً للفظ التثنية؛ لأنَّ

التثنية ضعفان في الحقيقة، ألا ترى أنهم أيضاً قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشئيين متلازمين؟... فقالوا: الحكمان والعلمان، وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد، فقالوا: اشترك باب فعلان وباب التثنية.... وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصة وعامة.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دالّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالّ على تعلّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالّ على أن الرحمة صفته، والثاني دالّ على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردتَ فهمَ هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يَجِءَ قطّ رحمن بهم، فعُلِمَ أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته.

وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرأة قلبك لم ينجل لك صورتها^(١).

(١) بدائع الفوائد (١/٢٣).

الملك الحق

من أسمائه الملك، ومعنى المُلك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه، وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال؛ إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة، ولا إرادة ولا سمع ولا بصر، ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى، ولا يثيب ولا يعاقب، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يعزّ ويذل، ويهين ويكرم، وينعم وينتقم، ويخفض ويرفع، ويرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ويتقدم إلى عبيده بأوامره ونواهيته، فأبي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك؟ وهذا يبيّن أنّ المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا ممالئكه أكمل منه، ويأنف أحدهم أن يقال في أميره وملكه ما يقوله هو في ربه، فصفة ملكية الحق مستلزمة لوجود ما لا يتم التصرف إلاّ به.

والكل منه سبحانه، فلم يتوقّف كمال ملكه على غيره، فإنّ كلّ ما سواه مسند إليه، متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه؛ يوضّحه أنّ كمال ملكه بأن يكون مقارناً بحمده، فله الملك، وله الحمد.

والناس في هذا المقام ثلاث فرق:

فالرُّسُل وأتباعهم أثبتوا له الملك والحمد، وهذا مذهب من أثبت له القدر والحكمة وحقائق الأسماء والصفات، ونزّهه عن النقائص ومشابهة المخلوقات. ويوحشك في هذا المقام جميع الطوائف غير أهل السنة الذين لم يتحيزوا إلى نحلة ولا مقالة ولا متبوع من أهل الكلام.

الفرقة الثانية: الذين أثبتوا له الملك، وعطلوا حقيقة الحمد، وهم

الجبرية نفاة الحكمة والتعليل، القائلين بأنه يجوز عليه كلّ ممكن، ولا ينزه عن فعل قبيح، بل كل ممكن فإنه لا يقبح منه، وإنما القبيح المستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين، فيجوز عليه تعذيب ملائكته وأنبيائه ورسله وأهل طاعته وإكرام إبليس وجنوده وجعلهم فوق أوليائه في النعيم المقيم أبداً، ولا سبيل لنا إلى العلم باستحالة ذلك إلا من نفى الخلف في خبره فقط، فيجوز أن يأمر بمشيئته ومشية أنبيائه والسجود للأصنام، وبالكذب والفجور وسفك ونهب الأموال، وينهى عن البر والصدق والإحسان والعفاف، ولا فرق في نفس الأمر بين ما أمر به ونهى عنه إلا التحكم بمحض المشيئة، وأنه أمر بهذا ونهى عن هذا من غير أن يكون فيما أمر به صفة حسن تقتضي محبته والأمر به، ولا فيما نهى عنه صفة قبح تقتضي كراهته والنهي عنه، فهؤلاء عطلوا حمده في الحقيقة، وأثبتوا له ملكاً بلا حمد مع أنهم في الحقيقة لم يثبتوا له ملكاً، فإنهم جعلوه معطلاً في الأزل والأبد لا يقوم به فعل البتة، وكثير منهم عطله عن صفات الكمال التي لا يتحقق كونه ملكاً ورباً وإلهاً إلا بها، فلا ملك أثبتوا ولا حمد.

الفرقة الثالثة: أثبتوا له نوعاً من الحمد، وعطلوا كمال ملكه وهم القدرية؛ الذين أثبتوا نوعاً من الحكمة، ونفوا لأجلها كمال قدرته، فحافظوا على نوع من الحمد عطلوا له كمال الملك، وفي الحقيقة لم يثبتوا لا هذا ولا هذا، فإن الحكمة التي أثبتوها جعلوها راجعة إلى المخلوق لا يعود إليه سبحانه حكمها والملك الذي أثبتوه، فإنهم في الحقيقة إنما قرروا نفيه لنفي قيام الصفات التي لا يكون ملكاً حقاً إلا بها، ونفي قيام الأفعال الاختيارية، فلم يقم به عندهم وصف ولا فعل ولا له إرادة ولا كلام، ولا سمع ولا بصر، ولا فعل، ولا له حب ولا بغض،

معطل عن حقيقة الملك والحمد، والمقصود أن عموم ملكه يستلزم إثبات القدر، وألا يكون في ملكه شيء بغير مشيئته فالله أكبر من ذلك وأجلّ، وعموم حمده يستلزم ألا يكون في خلقه وأمره ما لا حكمة فيه ولا غاية محمودة يفعل لأجلها، ويأمر لأجلها، فالله أكبر وأجلّ من ذلك.

والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويشيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام، وأيضاً فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاماً، فإنّ الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كلّه إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم - منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره - أن أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة.

قالوا: لأنّ نعيم الجنة حظّهم وتمتعهم، فأين يُقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات، وقراءة القرآن، والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته، وإيثاره على هواها وشهواتها؟! فالإيمان متعلّق به سبحانه، وهو حقّه عليهم، ونعيم الجنة متعلّق بهم وهو حظّهم، فهم إنما خلّقوا للعبادة، والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضاً فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بدّ من إخراجه من الجنة إلى دار قدّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم؛ فمن أسبابه النهي عن تلك

الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل، وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية.

وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة يترتب على خروجها من الجنة، ثم يترتب على خروجها أسباب أخر جعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة التي يحمده عليها أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدر أحكم الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبره عبثاً، ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضاً فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته؛ يستبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يشنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة، وغلبات الهوى، وتعاضد الطباع لأحكامها، ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصدّه ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه؛ فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع؛ فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما

كانوا يعظّمونه ويجلّونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر،
 فذلك الخيرُ وهذا الشرُّ كامنٌ في النفوس لا يعلمونهما، فلا بُدَّ من إخراجِه
 وإبرازِه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كلِّ منهما بما يليق به .
 وأيضاً فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطواراً وأصنافاً، وسبق في حكمه
 وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثيرٍ ممّن خلّق تفضيلاً جعل عبوديتهم
 أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم،
 أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعاً واختياراً لا كرهاً واضطراً،
 ولهذا أرسل الله جبريلَ إلى سيّد هذا النوع الإنساني يخيره بين أن يكون
 عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً، فاختر بتوفيق ربه له أن يكون عبداً رسولاً،
 وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله؛ كمقام
 الدعوة والتحدّي والإسراء، وإنزال القرآن، ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾
 [الجن: ١٩] ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿ سُبْحَانَ
 الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾
 [الفرقان: ١].

فأثنى عليه ونوّه به لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهلُ الموقف حين
 يطلبون الشفاعة: «اذهبوا إلى محمد، عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما
 تأخر»^(١).

فلما كانت العبوديةُ أشرف أحوال بني آدم وأحبّها إلى الله، وكان لها
 لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها؛ كان من أعظم الحكمة أن
 أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها

(١) رواه البخاري (٦٥٦٥) في الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، ومسلم (١٩٣) في
 الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تكميلاً لهم وإتماماً لنعمته عليهم، مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى؛ فإنه يحبّ إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلّات، وتكفير السيئات، ودفع البليّات، وإعزاز من يستحقّ العز، وإذلال من يستحقّ الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء لا بدونه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة، كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل^(١).

إنّ الحقّ الذي خُلِقَتْ به السموات والأرض وما بينهما هو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كلّ موفق كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأملُ سطورَ الكائناتِ فإنها من الملائعِ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خطّ فيها لو تأملتَ خطّها: ألاكلُ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

وأما الحقّ الذي هو غاية خلقها؛ فهو غاية تُراد من العباد، وغاية تُراد بهم، فالتّي تُراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوّبهم.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْثَرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].
فاخبر أنّه خَلَقَ العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه،

(١) شفاه العليل ص (٢٢٠).

وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات :

. [٥٦]

فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده، وأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا وَعَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَسْئَةِ ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴿١٥﴾ ﴾ [طه : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النحل : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس : ٣ - ٤] .

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولاً وآخراً ووسطاً، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق^(١) .

(١) بدائع الفوائد (٤/١٦٤) .

وقال تعالى: ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وتأمل ما في هذين الاسمين، وهما (الملك) (الحق)، من إبطال هذا الحساب الذي ظنّه أعداؤه، إذ هو منافٍ لكمال ملكه، ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرف في خلقه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك، إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بفعله وأمره، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره، فمن ظنّ أنه خلق خلقه عبثاً لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أنّ ذاته الحق فقلوه الحق، ووعدده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلّها حق، وجزاءه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كلّ وجه وبكل اعتبار، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظنّ بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثاً، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

قال الشافعي - رحمه الله - : مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى .

وقال غيره: لا يُجْزَى بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَا يَثَابُ وَلَا يَعَاقِبُ، وَالْقَوْلَانِ

متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿الَّذِيكَ نَفَعْنَا مِنْ مِّنْ يُتَمَنَّى﴾ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّخَلَّقًا فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٨].

فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي؛ حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشراً سوياً، فكيف يتركه سدى لا يسوقه^(١).

وقد أنكر سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة.

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب، ويعبد، ويشكر، ويذكر، ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر، ويبرم القضاء، ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب، ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء

(١) بدائع الفوائد (٤/١٦٥).

بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجوداً مشهوداً، فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليکہا، وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلاً مختاراً.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به، ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود، وينعم، ويعفو، ويغفر، ويسامح، ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعاً.

ومنها: أنه يحب أن يُثنى عليه، ويُمدح، ويُمجّد، ويُسبّح، ويُعظّم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووجدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم التي تضمّنها الخلق، فخلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمّن للحق، وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿وَرَتَقَكُرُورًا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة، ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة، لا لحكمة ولا لغاية مقصودة، وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبت المنكرون من ذلك ينزهه عنه الرب ويتعالى عن نسبه إليه، فإنهم أثبتوا خلقاً وأمرأ لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه ألبتة، وينهى عما فيه مصلحة، والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه، وينهى عن جميع ما أمر به، ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين، بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين، بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه، وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه، وبتزييه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به، كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه، وعلوه فوق سمواته، وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم

التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات، والله ولي
التوفيق^(١).

(١) شفاء العليل ص (١٩٨).

القدوس

القدوس: المنزه من كل شر ونقص وغيب، كما قال أهل التفسير، هو الطاهر من كل عيب، المنزه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة.

وأصل الكلمة من الطهارة والتزاهة، ومنه بيت المقدس لأنه مكان يُتَطَهَّر فيه من الذنوب، ومن أمه لا يريد إلا الصلاة فيه رجوع من خطيئته كيوم ولدته أمه. ومنه سُمِّيت الجنة حظيرة القدس لطهارتها من آفات الدنيا. ومنه سُمِّي جبريل روح القدس لأنه طاهر من كل عيب. ومنه قول الملائكة: ﴿وَمَنْ نَسَبْكُمْ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْفِرْيَافِ فَحَبَّطْنَاهُ فِي سَعِيرٍ مِّنْ نَّارِهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. فقيل: المعنى: ونقدس أنفسنا لك، فعدي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب: أن المعنى نقدسك ونزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ﴿ونقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأذناس ومما أضاف إليك أهل الكفر بك.

قال: وقال بعضهم: نعظّمك ونمجّدك، قاله أبو صالح.

وقال مجاهد: نعظّمك ونكبرك. انتهى^(١).

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك، واللام فيه على

حدّها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]^(٢) لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه

(١) تفسير ابن جرير (١/٢١١).

(٢) «ردف لكم»: لحقكم ووصل إليكم. وتام الآية والتي قبلها: «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردّف لكم بعض الذي تستعجلون» =

نفوسهم لأجله. قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: ﴿نسيح بحمدك﴾
فإن التسييح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: سبحانه الله كلمة يُعظّم بها الرب ويُحاشى بها
من السوء.

وقال ابن عباس: هي تنزيهٌ لله من كلّ سوء.

وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سبّحت في الأرض إذا

تباعدت فيها، ومنه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فمن أثنى
على الله ونزّهه عن السوء فقد سبّحه، ويقال: سبّح الله وسبّح له، وقدّسه
وقدّس له^(١).

[النمل: ٧١ - ٧٢]. =

(١) شفاء العليل ص (١٧٩).

السلام

لما كان «السلام» اسماً من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل^(١) - كالكلام والعطاء - بمعنى السلامة، كان الرب تعالى أحقَّ به من كلِّ ما سواه؛ لأنَّه السَّالم من كلِّ آفةٍ وعيبٍ ونقصٍ وذمٍّ، فإنَّ له الكمالَ المطلقَ من جميع الوجوه، وكمالَه من لوازم ذاته، فلا يكون إلاً كذلك؛ والسلام يتضمَّن سلامة أفعاله من العبث والظلم وخلاف الحكمة، وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة ذاته من كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وسلامة أسمائه من كلِّ ذمٍّ؛ فاسم «السلام» يتضمَّن إثبات جميع الكمالات له وسلب جميع النقائص عنه، وهذا معنى: «سبحان الله والحمد لله»، ويتضمَّن إفراده بالألوهية، وإفراده بالتعظيم؛ وهذا معنى: «لا إله إلاَّ الله، والله أكبر»، فانْتَظَم اسم «السلام» الباقيات الصالحات^(٢) التي يثني بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفاصيل ذلك أنه الحيّ الذي سلمت حياته من الموت والسُّنة والنوم والتغيّر، القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب والإعياء والعجز عما يريد، العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال

(١) اسم المصدر هو ما سارَى المصدر في الدلالة على معناه، وخالفه بخلوه من بعض ما في فعله، كالوضوء والكلام والسلام... ولم يشتق منه فعل.

(٢) من معاني الباقيات الصالحات في قوله تعالى: «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً» [الكهف: ٤٦] أنها الصلوات الخمس، وقيل: هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

ذرة أو يغيب عنه معلوم من المعلومات؛ وكذلك سائر صفاته على هذا. فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب؛ وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام؛ وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه؛ وقدرته سلام أن ينازعها العجز؛ ومشيتها سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها؛ وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم، بل تَمَّتْ كلماته صدقاً وعدلاً^(١)؛ ووعدته سلام أن يلحقه خُلْفٌ. وهو سلام أن يكون قبله شيء أو بعده شيء أو فوقه شيء أو دونه شيء، بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء؛ وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه؛ ومغفرته سلام أن يبالي بها أو يضيق بذنوب عباده أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه كما تكون مغفرة الناس؛ ورحمته وإحسانه ورأفته وبره وجوده وموالاته لأوليائه وتحبُّبه إليهم وحنانه عليهم وذكره لهم وصلاته عليهم سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم أو تكثُر بهم، وبالجملة فهو السلام من كلِّ ما ينافي كلامه المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كلَّ الخطأ من زعم أنه من أسماء السُّلُوب؛ فإن السلب المحض لا يتضمَّن كمالاً، بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضاؤه، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه وجدته مستلزماً لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقدر، وعلوِّ الربِّ تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، وإطلاعه على سرائرهم وعلاياتهم، وتفردّه بتدبيرهم، وتوحدّه في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو

(١) مصداقه: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ [الأنعام: ١١٥].

السلام الحق من كل وجه، كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولمّا كان سبحانه موصوفاً بأن له يدين لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حُسنى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال، وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا، وتحيتهم يوم لقائه؛ ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى قال الله له: «اذهب إلى أولئك النَّفَر من الملائكة، فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك»^(١).

وقال تعالى: ﴿ هُمْ ذَارِ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وقال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس: ٢٥].

وقد اختلف في تسمية الجنة بدار السلام، فقيل: السلام هو الله، والجنة داره؛ وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص؛ وقيل: سُميت «دار السلام» لأنّ تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها.

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلم عليه بسلامته من غيلة المسلم وغشه ومكره ومكروه يناله منه، فيردّ الرادّ عليه مثل ذلك؛ أي فعل الله ذلك بك، وأحلّه عليك^(٢).

والسلام: الذي سلم من العيوب والنقائص، ووصّفه بالسلام أبلغ في

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦) في أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، ومسلم

(٢٨٤١) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل

أفئدة الطير.

(٢) أحكام أهل الذمة (١/١٩٣).

ذلك من وَصْفه بالسالم. ومن موجبات وصفه بذلك سلامة خلقه من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن التسمية به، ومن فعله، ومن نسبه إليه، فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص المسلم لخلق من الظلم، ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنى على أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب^(١).

ويمكن أن نسأل: ما الحكمة في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى وتجريد السلام عن الإضافة^(٢)؟

فجوابه أن السلام لما كان اسماً من أسماء الله تعالى استغنى بذكره مطلقاً عن الإضافة إلى المسمى، وأما الرحمة والبركة فلو لم يضافا إلى الله لم يُعلم رحمة مَنْ ولا بركة مَنْ تطلب.

فلو قيل: عليكم ورحمة وبركة، لم يكن في هذا اللفظ إشعار بالراحم المبارك الذي تطلب الرحمة والبركة منه، فقيل: رحمة الله وبركاته.

وجواب ثان: أن السلام يُراد به قول المسلم: سلام عليكم، وهذا في الحقيقة مضاف إليه، ويُراد به حقيقة السلامة المطلوبة من السلام سبحانه وتعالى، وهذا يضاف إلى الله، فيضاف هذا المصدر إلى الطالب الذاكر تارة، وإلى المطلوب منه تارة، فأطلق ولم يضاف.

وأما الرحمة والبركة فلا يضافان إلا إلى الله وحده، ولهذا لا يقال رحمتي وبركتي عليكم، ويقال: سلام مني عليكم، وسلام من فلان على

(١) شفاء العليل (ص ١٧٩).

(٢) في قول المُسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلان، وسِرُّ ذلك أن لفظ السلام اسم للجمله القولية بخلاف الرحمة والبركة فإنهما اسمان لمعناهما دون لفظهما، فتأمله فإنه بديع.

وجواب ثالث وهو أن الرحمة والبركة أتمّ من مجرد السلامة؛ فإن السلامة تبعد عن الشر، وأما الرحمة والبركة فتحصيل للخير وإدامة له وتثبيت وتنمية، وهذا أكمل فإنه هو المقصود لذاته، والأول وسيلة إليه، ولهذا كان ما يحصل لأهل الجنة من النعيم أكمل من مجرد سلامتهم من النار، فأضيف إلى الرب تبارك وتعالى أكمل المعنيين وأتمهما لفظاً، وأطلق الآخر، وفهمت إضافته إليه معنى من العطف وقرينة الحال، فجاء اللفظ على أتمّ نظام وأحسن سياق.

وسؤال آخر: ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة؟
فجوابه أن السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله فيستحيل أيضاً جمعه، فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه.

وأما الرحمة فمصدر أيضاً بمعنى العطف والحنان فلا تجمع أيضاً، والناء فيها بمنزلتها في الخلّة والمحبة والرقّة، ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرّة، فكما لا يقال رقات ولا خللات ولا رأفات، لا يقال رحمات، وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد، وإفراده يشعر بالمسمّى مطلقاً من غير تحديد، فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جداً أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] أعمّ وأتمّ معنى من أن يقال: فله الحجج البوالغ.

وكان قوله: ﴿وَإِنْ تَسُدُّوا نَمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] أتمّ معنى من أن يقال: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها.

وقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أتم معنى من أن يقال حسنات.

وكذا قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَلَّوْا كَيْدًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧١] ونظائره كثيرة جداً.

وأما البركة فإنها لما كان مُسمَّها كثرة الخير، واستمراره شيئاً بعد شيء كلما انقضى منه فرد خلفه فرد آخر فهو خير مستمر، يتعاقب الأفراد على الدوام شيئاً بعد شيء؛ كان لفظ الجمع أولى بها لدلالته على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وِبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فأفرد الرحمة وجمع البركة، وكذلك في السلام في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته^(١).

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢)، فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً^(٣).

وإذا عُرِفَ هذا فإطلاق (السلام) على الله تعالى اسماً من أسمائه هو أولى من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به؛ لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة؛ فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص

(١) بدائع الفوائد (١٨١/٢).

(٢) رواه مسلم (٥٩١) في المساجد، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة.

(٣) بدائع الفوائد (١٨٧/٢).

يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحقّ من كلّ وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كلّ ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزّهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والتسمي والمماثل، والسلام من الشريك، ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كلّ صفة سلاماً مما يضادّ كمالها، فحياته سلام من الموت ومن السنّة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللُّغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكير، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كلّ ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كلّ ما سواه، ومملكه سلام من منازع فيه، أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه.

والهيته سلام من مشارك له فيها؛ بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذلّ أو مصانعة؛ كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضع الأشياء مواضعها، وهو مما يستحقّ عليه الحمد والثناء؛ كما يستحقّه على إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة

لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده^(١) وحكمته وعزته؛ فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سلام من العيب والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته؛ بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوؤه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله، أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه، واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا^(٢) سلام مما يصادّ علوّه، وسلام مما يصاد غناه، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: من عدله.

(٢) جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟». رواه البخاري (١١٤٥) في التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل.

يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء، تعالى الله ربنا عن كل ما يضاعده كماله، وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذلّ، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر؛ كما قال: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه، أو تملق له، أو انتفاع بقربه، و سلام مما يتقوله المعطلون فيها.

وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه، أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه (السلام) كل ما نزه عنه تبارك وتعالى، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني^(١)!

ونسأل: هل السلام مصدر أو اسم مصدر؟

فالجواب: أن السلام الذي هو التحية، اسم مصدر من سلّم، ومصدره الجاري عليه تسليم، كعلم تعليماً، وفهم تفهيماً، وكلم تكليماً، والسلام من سلّم كالكلام من كلم.

فإن قيل: وما الفرق بين المصدر والاسم؟

قلنا: بينهما فرقان لفظي ومعنوي.

(١) راجع صحيح البخاري كتاب الاستئذان، (٦١) باب: السلام اسم من أسماء الله.

أما اللفظي: فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالإفعال من أفعل، والتفعيل من فَعَلَ، والانفعال من انْفَعَلَ، والتَّفَعُّلُ من تَفَعَّلَ وبابه. وأما السلام والكلام فليسا بجارين على فعليهما، ولو جريا عليه لقبل تسليم وتكليم.

وأما الفرق المعنوي: فهو أنَّ المصدر دالٌّ على الحدث وفاعله، فإذا قلت: تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك دلَّ على الحدث ومن قام به، فيدلُّ التسليم على السلام والمسلم، وكذلك التكليم والتعليم.

وأما اسم المصدر فإنما يدلُّ على الحدث وحده؛ فالسلام والكلام لا يدلُّ لفظه على مسلم ولا مكلم بخلاف التكليم والتسليم.

وسرُّ هذا الفرق أن المصدر في قولك: سلّم تسليماً، وكلّم تكليماً بمنزلة تكرار الفعل، فكأنك قلت: سلّم سلّم وتكلّم وتكلّم، والفعل لا يخلو عن فاعله أبداً^(١).

وأما السؤال الرابع فهو: ما معنى السلام المطلوب عند التحية؟

فيه قولان مشهوران، أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده.

واحتج أصحاب هذا القول بحجج، منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو

(١) بدائع الفوائد (٢/١٣٥).

السلام، ولكن قولوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(١).

فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله؛ لأنَّ السلام على المُسَلَّم عليه دعاء له وطلب أن يسلم، والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم عليه، بل هو المسلم على عباده، كما سلَّم عليهم في كتابه حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨١].

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصفات: ١٠٩] ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصفات: ٧٩] ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الصفات: ١٣٠].

وقال في يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥].

وقال لنوح: ﴿أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَجْوَاتٌ ﴿٥٧﴾ وَمَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٧ - ٥٨] فقولاً منصوب على المصدر، وفعله ما تضمنه سلام من القول؛ لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه من حديث محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رؤوسهم؛ فإذا الجبار جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلامٌ عليكم، ثم قرأ قوله:

(١) رواه أحمد (٤٦٤/١) والنسائي (٢٤٠/٢)، ابن حبان في صحيحه (١٩٤٩) والطبراني في المعجم الكبير (٩٩٠٤) والطالبي في مسنده (٢٤٩).

﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] ثم يتوارى عنهم؛ فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم^(١).

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر»^(٢).

وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُمْ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى، ومحال أن تكون هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منه لهم. والتحية هنا مضافة إلى المفعول فهي التحية التي يحيون بها؛ لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله تعالى في سورة يس: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [س: ٢٤] كما قال تعالى: ﴿ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم، وأما التحية المذكورة في قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُمْ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فتلك تحية لهم وقت اللقاء، كما يحيي

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٨/٦ - ٢٠٩)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٧٤/٢)، وابن عدي في الكامل (٢٠٣٩/٦ - ٢٠٤٠)، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٦٠/٣ - ٢٦١)، والآجري في (التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة رقم ٤٨)، وابن بلبان في (المقاصد السننية ص ٣٧٤).

وفيه: أبو عاصم العباداني، منكر الحديث، والفضل الرقاشي ضعيف. فالحديث ضعيف كما في (ضعيف سنن ابن ماجه ص ١٤).

(٢) رواه ابن ماجه (١٠٤) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ.

الحبيب حبيبه إذا لقيه، فماذا حُرِمَ المحجوبون عن ربهم يومئذ؟
 يكفي الذي غاب عنك غيبته فذاك ذنبٌ عقابُه فيه
 والمقصود أن الله تعالى يُطلبُ منه السلام، فلا يمتنع في حقّه أن يسلم
 على عباده، ولا يطلب له فلذلك لا يُسلمُ عليه، وقوله ﷺ: «إن الله هو
 السلام»^(١) صريحٌ في كون (السلام) اسماً من أسمائه.

قالوا: فإذا قال المسلم: سلام عليكم كان معناه اسم السلام عليكم.
 ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر أن رجلاً سلّم على
 النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ثم تيمّم وردّ عليه، وقال: «إني
 كرهتُ أن أذكر الله إلا على طهر»^(٢).

قالوا: ففي هذا الحديث بيان أن السلام ذكْر الله، وإتّما يكون ذكراً إذا
 تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يُبدؤون بالسلام فلا
 يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يُكره أن يقال لأحدهم سلّمك الله،
 وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول
 بركة ذلك الاسم عليه. فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة.

القول الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعوّ
 به عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يذكر بلا ألف ولا م، بل
 يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل
 كذلك، بل كان يطلق عليه معرّفاً، كما يُطلق عليه سائر أسمائه الحسنی،

(١) رواه البخاري (٨٣١) في الأذان، باب: التشهد في الآخرة.

(٢) رواه أبو داود (١٧) في الطهارة، باب: أيرد السلام وهو يبول؟ والنسائي

(٣٥/١ - ٣٦) في الطهارة، باب: السلام على من يبول، وابن ماجه (٣٥٣) في

الطهارة وسنها، باب: الرجل يسلم عليه وهو يبول.

فيقال: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معيّن فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماءه الحسنی.

ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يدلُّ على أنّ المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.

ومن حججهم أيضاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً، ويكون المعنى: بركة اسم السلام عليكم، فإن الاسم نفسه ليس عليهم. ولو قلت: اسم الله عليك؛ كان معناه: بركة هذا الاسم، ونحو ذلك من التقدير. ومعلوم أنّ هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.

ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خيراً ودعاء، كما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا، ولهذا كان السلام أماناً لتضمّنه معنى السلامة، وأمن كل واحد من المسلم والراذ عليه من صاحبه.

قالوا: فهذا كلّه يدلُّ على أنّ السلام مصدر بمعنى السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه، والتاء تفيد التحديد.

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكلّ منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما نبين ذلك بقاعدة؛ وهي أن مَنْ دعا الله بأسمائه الحسنی أن يسأل في كلّ مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله؛ حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه

باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه. وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحبُّ العفو فاعفُ عني»^(١).

وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٢).
وهذا كثير جداً فلا نطول بإيراد شواهد.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام؛ الذي يطلب منه السلامة، فتضمَّن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله كما في حديث ابن عمر، والثاني طلب السلامة وهو مقصود المسلم، فقد تضمَّن (سلام عليكم) اسماً من أسماء الله وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في (أمين): إنه اسم من أسماء الله تعالى^(٣)، وأنكر كثيرٌ من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه (أمين)، ولم يفهموا معنى كلامه؛ فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمَّن اسمه تبارك وتعالى، فإن معناها استجب وأعطِ ما سألناك،

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣) في الدعوات، باب (٥٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، باب: الدعاء بالعفو والعافية، وأحمد (١٧١/٦ و ١٨٢ و ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢٦) في الدعوات، باب: الدعاء في الصلاة، ومسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

(٣) عن مجاهد أنه قال: أمين: اسم من أسماء الله تعالى (إعراب القرآن للزجاج ١/١٤٤) وانظر: التبيان للعكبري (١/٥).

فهي متضمّنة لاسمه مع دلالتها على الطلب، وهذا التضمّن في (سلام عليكم) أظهر؛ لأنّ السلام من أسمائه تعالى، فهذا كشف سِرّ المسألة^(١).

(١) بدائع الفوائد (٢/١٤٠).

الجبار، المتكبر

أما الجبر فيرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول:

أحدها: أن يغنى الرجل من فقر، أو يجبر عظمه من كسر، وهذا من الإصلاح، وهذا الأصل يستعمل لازماً ومتعدياً، يقول: جبرت العظم وَجَبِرَ. وقد جمع العجَّاج بينهما في قوله:

قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَّرَهُ^(١)

الأصل الثاني: الإكراه والقهر، وأكثر ما يستعمل هذا على أفعال، يقال: أجبرته على كذا إذا أكرهته عليه، ولا يكاد يجيء جبرته عليه إلا قليلاً.

والأصل الثالث: من العز والامتناع، ومنه نخلة جبارة. قال الجوهري: والجبار من النخل ما طال وفات اليد، قال الأعشى:

طَرِيقٌ وَجَبَّارٌ رِوَاءُ أَصُولِهِ عَلَيْهِ أَبَايِلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ^(٢)

وقال الأخفش في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]

(١) لسان العرب مادة (جبر)، وديوان المعجاج (٢/١) من قصيدة قالها في مدح

عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر.

(٢) من قصيدة مطلعها:

تصابيت أم بانث بعقلك زينب

الديوان (١٧٧) اللسان: جبر.

قال: أراد الطول والقوة والعظم. ذهب في هذا إلى الجبار من النخل، وهو الطويل الذي فات الأيدي^(١).

ويقال: رجل جبار إذا كان طويلاً عظيماً قوياً، تشبيهاً بالجبار من النخل.

قال قتادة: كانت لهم أجسام وخلق عجيبة ليست لغيرهم^(٢).

وقيل الجبار - هاهنا - من: جَبَرَهُ على الأمر إذا أكرهه عليه. قال الأزهري: وهي لغة معروفة، وكثير من الحجازيين يقولونها.

وكان الشافعي رحمه الله يقول: جبره السلطان.

ويجوز أن يكون الجبار من أجبره على الأمر: إذا أكرهه.

قال الفراء: لم أسمع فعلاً من أفعل إلا في حرفين وهما جَبَّارٌ من أجبر، ودَرَّأَكَ من أدرك^(٣).

وهذا اختيار الزجاج، قال: الجَبَّارُ من الناس العاتي الذي يَجْبُرُ الناسَ على ما يريد، وأما الجَبَّارُ من أسماء الرب تعالى فقد فسره بأنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير والرب سبحانه كذلك^(٤).

ولكن ليس هذا معنى اسمه الجَبَّارُ؛ ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت.

(١) في لسان العرب أن هذا من قول اللحياني، وليس من قول الأخفش، وقد راجعنا «معاني القرآن» للأخفش، فلم نجده فيه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٧٤/٦).

(٣) لسان العرب مادة (جبر). والجامع لأحكام القرآن (١٢٦/٦).

(٤) قال الزجاج: والله عز وجل الجبار العزيز وهو الممتنع من أن يذل. والله عز وجل يأمر بما أراد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه (معاني القرآن ١٦٣/٢).

وكان النبي ﷺ يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»^(١).

فالجَبَّارُ: اسم من أسماء التعظيم كالمتكبر والملك والعظيم والقهار. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] هو العظيم. وجبروت الله: عظيمته^(٢). والجَبَّارُ: من أسماء الملوك، والجبر: الملك، والجابرة: الملوك، قال الشاعر:

وَأَنْعَمُ صَبَاحاً أَثِيهَا الْجَبْرِ^(٣)

أي: أيها الملك.

وقال السُّدي: هو الذي يجبر الناس ويقهرهم على ما يريد، وعلى هذا فالجَبَّارُ معناه القهار.

وقال محمد بن كعب: إنما سُمِّيَ الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد^(٤). والخلق أدق شأناً من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته. قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد. وقال ابنُ الأنباري: الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال. ومنه قولهم: نخلة جَبَّارة إذا فاتت يَدَ المتناول، فالجبار في صفة

(١) رواه أبو داود (٨٧٣) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، والنسائي (١٩١/٢) في التطبيق، باب: نوع آخر من الذكر في الركوع، وأحمد (٣٨٨/٥، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تفسير القرطبي (٤٧/١٨).

(٣) لسان العرب مادة (جبر)، والشاعر هو ابن أحمَر الباهلي. وقال ابن جنِّي في الخصائص (٢١/٢): وإنما سُمِّيَ بذلك - أظنَّ - لأنه يجبر بجوده.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (٦٧/١).

الرب سبحانه ترجع إلى ثلاثة معان: الملك والقهر والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقروناً بالعزیز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين.

وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي: الخالق البارئ المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزیز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنی.

وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: مسلط

تقهرهم وتكرهم على الإيمان.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ يطوهم الناس»^(١)،^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) بنحوه في صفة القيامة، باب (٤٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) شفاء العليل ص (١٢٠).

البصير

إذا شهد معنى اسمه (البصير) جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مدّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطى هذا المشهد حقّه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها، وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء.

فالله البصير الذي لكامل بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع^(١).



(١) طريق الهجرتين ص (٦٧).

العزیز

العزیز الذی له العِزَّةُ التامة. ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعیب؛ فإنَّ ذلك يُنافي العِزَّةَ التامة^(١).



(١) شفاء العلیل ص (١٨٠).

وقال الحلیمي: العزیز: الذی لا یوصل إلیه، ولا یمکن إدخال مکروه علیه؛ فإنَّ العزیز فی لسان العرب من العِزَّة وهي الصلابة، فإذا قیل: الله العزیز فإنما یُراد به الاعتراف له بالقدم الذی لا یتهیأ معه تغیره عمًا لم یزل علیه من القدرة والقوة، وذلك عائد إلی تنزیهه عمًا یجوز علی المصنوعین لأعراضهم بالحدوث فی أنفسهم للحوادث أن تصیبههم وتغیرهم.

وقال الخطابی: العزیز هو المنیع الذی لا یُغلب، والعز قد یمکن بمعنی الغلبة، یقال منه عزَّ یعزُّ بضم العین من یعز. وقد یمکن بمعنی الشدة والقوة، یقال منه عزَّ یعز بفتح العین. وقد یمکن بمعنی نفاسة القدر، یقال منه عزَّ الشيء یعز بکسر العین، فیتناول معنی العزیز علی هذا أنه لا یعادلہ شيء، وأنه لا مثل له. (الأسماء والصفات للبیهقي ١/ ٧٠ - ٧١).

الحكيم العليم العليم

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمّن لإثبات صفة الحكمة والعلم، اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خَلَقَهُ سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمّنان لجميع صفات الكمال، فالعلمُ يتضمّن الحياة ولوازم كمالها من: القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلمُ الثّام.

والحكمةُ تتضمّن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوها، ويتضمّن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب.

كلّ هذا العلم من اسمه الحكيم، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خَلَقَ الخَلْقَ عبثاً وسُدَى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمّن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصحّ القولين أن المعاد يُعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدلّ العقل على إثباته.

ومن تأمّل طريقة القرآن وجدها دالّة على ذلك، وأنه سبحانه يضربُ لهم الأمثال المعقولة التي تدلُّ على إمكان المعاد تارةً ووقوعه أخرى، فيذكر أدلّة القدرة الدالّة على إمكان المعاد وأدلّة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

وَمَنْ تَأْمَلْ أَدَلَّةَ الْمَعَادِ فِي الْقُرْآنِ وَجَدَهَا كَذَلِكَ مَغْنِيَةً بِحَمْدِ اللَّهِ عَنْ غَيْرِهَا، كَافِيَةً شَافِيَةً، مُوصِلَةً إِلَى الْمَطْلُوبِ بِسُرْعَةٍ، مُتَضَمِّنَةً لِلْجَوَابِ عَنِ الشَّبهِ الْعَارِضَةِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَفِيهَا الْبَيَانُ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى مَوَاضِعِ الشَّبهِ وَالْجَوَابِ عَنْهَا بِمَا يَنْتَلِجُ لَهُ الصَّدْرُ، وَيَكْثُرُ مَعَهُ الْيَقِينُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدَلَّةِ فَإِنَّهَا عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ صِدْقَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرَ عَنِ عِلْمِ الرَّبِّ وَحِكْمَتِهِ.

وَاخْتَصَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ^(١) بِذِكْرِ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ لِاقْتِضَائِهِمَا لِتَعْجَبِ النُّفُوسِ مِنْ تَوْلِدِ مَوْلُودٍ بَيْنَ أَبْوِينِ لَا يُولَدُ لِمِثْلِهِمَا عَادَةً، وَخِفَاءِ الْعِلْمِ بِسَبَبِ هَذَا الْإِبْلَادِ، وَكُونَ الْحِكْمَةِ اقْتَضَتْ جَرِيَانَ هَذِهِ الْوَلَايَةِ عَلَى غَيْرِ الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ. فَذَكَرَ فِي الْآيَةِ اسْمَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ الْمُتَضَمَّنَ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِسَبَبِ هَذَا الْخَلْقِ وَغَايَتِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي وَضْعِهِ مَوْضِعَهُ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِمَوْجِبِ الْحِكْمَةِ^(٢).

فَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْعِلْمُ السَّابِقُ، فَقَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهِ الرُّسُلُ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى خَاتِمِهِمْ، وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ وَخَالَفَهُمْ مَجُوسُ الْأُمَّةِ، وَكُتَابَتِهِ السَّابِقَةُ تَدَلُّ عَلَى عِلْمِهِ بِهَا قَبْلَ كَوْنِهَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وخلقه لها.

(١) قصة سيدنا إبراهيم كما وردت في قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث إبراهيم﴾ [المكريمين: ٢٤].

(٢) الرسالة التبوكية ص (٦٧).

وقال قتادة: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول
وقوم صالحون وساكنو الجنة.

وقال ابن مسعود: أعلم ما لا تعلمون من إبليس.

وقال مجاهد أيضاً: علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي المسند من حديث لقيط بن عامر، عن النبي ﷺ، أنه قال: يا
رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ فقال: «ضنَّ ربُّك بمفاتيح خمس من
الغيب لا يعلمها إلا الله» وأشار بيده، فقلت: ما هن؟ قال: «علم المنية،
قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم المنى حين يكون في الرحم
قد علمه ولا تعلمونه. وعلم ما في غد، قد علم ما أنت طاعم ولا تعلمه،
وعلم يوم الغيث يشرف عليكم مشفقين، فيظلّ يضحكُ قد علم أنَّ غوثكم
إلى قريب، وعلم يوم الساعة»^(٢).

وفي الحديث المتفق على صحته: «ما منكم من أحد، ما من نفس
منفوسة، إلا وقد علم مكانها من الجنة أو النار»^(٣).

وقال البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، ثنا عبيد الله بن
موسى، ثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ
أحسبه قال: «يُؤْتَى بالهالك في الفترة والمعتوه والمولود، فيقول الهالك

(١) ذكر ابن جرير هذه الأقوال في تفسيره (١/٢١٢ - ٢١٣).

(٢) رواه أحمد (٤/١٣).

(٣) رواه البخاري (١٣٦٢) في الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر، ومسلم
(٢٦٤٧) في القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه.

في الفترة: لم يأتي كتاب ولا رسول، ويقول المعتوه: أي رب لم تجعل لي عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً، ويقول المولود: أي رب لم أدرك العمل، قال: ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً أن لو أدرك العمل، فيقول تبارك وتعالى: إِيَّاي عصيتم فكيف رسلي بالغيب^(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يُولَد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُتَّجُّ البهيمةُ جَمْعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟» قالوا: يا رسول الله أفرايت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(٢).

ومعنى الحديث: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا. وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ [الجمانية: ٢٣] قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه.

وقال أيضاً: على علم قد سبق عنده.

وقال أيضاً: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه.

وقال أبو إسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين.

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٦)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٢١٦/٧): رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩) في القدر، باب: الله أعلم بما كانوا عاملين، ومسلم (٢٦٥٨) في القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة.

«جمعاء»: مجمعة الأعضاء ليس فيها نقص. «جدعاء»: مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء.

وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره. قال: وقيل على ما سبق في علمه أنه ضالٌّ قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي، قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدي وغيره قولين في الآية هذا أحدهما، قال المهدي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال: وقيل على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون (على علم) حال من الفاعل، والمعنى: أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال في سابق علمه، وعلى الثاني حال من المفعول؛ أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى: أضله الله عالماً به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال وليس أهلاً أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والربُّ تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها، فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور ووضع الشيء في مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه، وهو سبحانه كثيراً ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر كما قال:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

الْفٰسِقِيْنَ ﴿٢٦﴾ الَّذِيْنَ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْۢ بَعْدِ مِيْثَاقِهٖۗ وَيَقْطَعُوْنَ مَاۤ اَمَرَ اللّٰهُ بِهٖۤ اَنْ يُّوْصَلَ
وَيُفْسِدُوْنَ فِي الْاَرْضِۗ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴿٢٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِيْنَ ﴿٢٩﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰذِبٌ كَفّٰرٌ ﴿٣٠﴾ [الزمر: ٣].

﴿ وَيُضِلُّ اللّٰهُ الظّٰلِمِيْنَ ﴿٣١﴾ [ابراهيم: ٢٧].

﴿ كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٢﴾ [غافر: ٣٤].

﴿ كَذٰلِكَ يَطَّعُ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبّٰرٌ ﴿٣٣﴾ [غافر: ٣٥].

﴿ كَذٰلِكَ يَطَّعُ اللّٰهُ عَلٰى قُلُوْبِ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴿٣٤﴾ [الروم: ٥٩].

وقد اخبر سبحانه انه يفعل ذلك عقوبةً لأرباب هذه الجرائم، وهذا
إضلال ثانٍ بعد الإضلال الأول، كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوْبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ
اللّٰهُ عَلَيَّهَا يَكْفُرْهُمْ فَلَا يُوْمِنُوْنَ اِلَّا قَلِيْلًا ﴿١٥٥﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَشْعُرْكُمْ اَنْهَا اِذَا جَاۤءَتْ لَا يُوْمِنُوْنَ ﴿١٥٦﴾ وَنُقَلِّبُ اَفْئِدَتَهُمْ

وَابْصَرَہُمْ كَمَا لَوْ يُوْمِنُوْنَ يَوْمَ اَوَّلِ سَرَّوْ وَنَدَّرْہُمْ فِي طَفِيْنِهٖمْ يَعْۢمَهُوْنَ ﴿١٥٧﴾ ﴿ (١)
[الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

وقال: ﴿ وَاِذْ قَالَ مُوْسٰى لِقَوْمِهٖ يَتَّقُوْا لِيْمَ تُوْذُوْنِيْ وَقَدْ تَعْلَمُوْنَ اِنِّيْ رَسُوْلٌ

اللّٰهُ اِلَيْكُمْ فَلَمَّا رَاَعُوْا اِزَاعَ اللّٰهِ قُلُوْبَهُمْ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِيْنَ ﴿٥﴾ [الصف:
٥].

وقال تعالى: ﴿ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا ﴿١٠﴾ [البقرة: ١٠].

(١) «يعمّهون»: يعمون عن الرشد، أو: يتحيرون.

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْمَلُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنفال:
٢٤] أي: إن تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين
قلوبكم فلا تقدرين على الاستجابة بعد ذلك.

ويشبه هذا إن لم يكن بعينه قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا
ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴿١٣﴾ [يونس: ١٣]. وفي
موضع آخر: ﴿نِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآءَ ءَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾
[الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: قال أبو إسحاق^(١): هذا إخبار
عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ
ءَامَنَ ﴿٣٦﴾ [هود: ٣٦] واحتج على هذا بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ [الأعراف: ١٠١] قال: وهذا يدلُّ على أنه قد طبَّع على
قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل
بما كذبوا يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً، وأقروا
باللسان، وأضمرُوا التكذيب.

وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا
به من قبل هلاكهم.

قلت: وهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا لِبَاءَهُمْ عَتَةً ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/٣٦١ - ٣٦٢).

وقال آخرون: لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحَوْهَا وَطَلَبُوهَا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بَعْدَ رُؤْيَيْهَا وَمَعَايِنَتِهَا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ رُؤْيَيْهَا وَمَعَايِنَتِهَا، فَمَنْعَهُمْ تَكْذِيبَهُمُ السَّابِقَ بِالْحَقِّ لَمَّا عَرَفُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ عَقُوبَةٌ مِّنْ رَّدِّ الْحَقِّ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَلَمْ يَقْبَلْهُ، فَإِنَّهُ يُصْرَفُ عَنْهُ، وَيُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَيَقْلَبُ قَلْبَهُ عَنْهُ، فَهَذَا إِضْلَالُ الْعَقُوبَةِ وَهُوَ مِنْ عَدْلِ الرَّبِّ فِي عِبْدِهِ.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولاً والاهتداء به فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدى، ولا يليق به، وأنَّ محله غير قابل له، فالله أعلمُ حيث يضعُ هداة وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلاً وميراثاً، وكما أنه ليس كل محلٍّ أهلاً لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كلَّ محلٍّ أهلاً لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة بالاتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف أنفه وأنف أن يسلم عليه وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة دوني، قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم تعرفون قدر نعمتي وتشكرونني عليها، وتذكرونني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبونني كحبهم؛ لمننت عليكم كما مننتُ عليهم، ولكن لِمَنِّي ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرن كثيراً بين

التخصيص والعلم كقوله ها هنا: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَ نَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَأَلْهَمُوا حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَبَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [١٦] وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿ [١٥] ﴾ [القصص: ٦٨ - ٦٩] أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق وهو الاصطفاء والاجتباء، ولهذا كان الوقف التام عند قوله: ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾^(١).

ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه، لا من قال: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله، بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلق، ومن زعم أن^(٢) (ما) مفعول يختار

(١) اختيار ابن القيم وتأكيده على أن الوقف على (يختار)، والابتداء بـ (ما) على أنها نافية، هو مذهب أهل السنة، أما كونها موصولة متصلة بـ (يختار) فهو مذهب المعتزلة. انظر: زاد المعاد لابن القيم (١٧/١ - ١٨) شفاء العليل (٣٢). مشكل إعراب القرآن لمكي (١٧٩/٢) الكشف (١٧٧/٣)، البحر المحيط (٢٩/٧)، إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري (٨٢٣/٢) منار الهدى للأشموني (١٣)، ٢١٢ - ٢١٣) القرطبي (٣٠٥/١٣)، الطبري (٩٩/٢٠ - ١٠٠) إعراب القرآن للزجاج (١٥١/٤ - ١٥٥) التبيان للمكبري (١٧٩/٢).

(٢) أنكروا الطبري أن تكون (ما) نافية وتعقبه مكي بن أبي طالب في مشكله وصرح بأن ما قاله الطبري ليس بحسن في الإعراب، وهو بعيد في المعنى والاعتقاد. =

فقد غلط؛ إذ لو كان هذا هو المرادُ لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ولأصبح المعنى: ما كان لهم الخيرة فيه، وحذف العائد فإن العائد هاهنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه، وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال: إن الاختيار هاهنا هو الإرادة كما يقوله المتكلمون إنه سبحانه فاعل بالاختيار، فإن هذا الاصطلاح حادثٌ منهم لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابقٌ لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمرٌ أخصّ من مطلق الإرادة والمشئّة.

قال في الصحاح: الخَيْرَةُ: الاسم من قولك: خار الله لك في هذا الأمر، والخيرة أيضاً من قولك: اختاره الله، يقال: محمد خَيْرَةُ الله من خلقه، وخَيْرَةُ الله أيضاً بالتسكين، والاختيار: الاصطفاء، وكذلك التَّخْيِيرُ، والاستخارة: طلب الخيرة، يقال: استخِرَ اللهُ يَخِرُ لك، وخَيْرْتُهُ بين الشيئين فَوَضْتُ إليه الاختيار. انتهى^(١).

فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطُح عليه أهلُ الكلام، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ رِسْوَلُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي اختار منهم.

وبهذا يحصل جوابُ السؤال الذي تورده القدرية، يقولون في الكفر

= (مشكل إعراب القرآن ٣/١٦٣، الطبري ٢٠/١٩٩ - ٢٠٠).
(١) الصحاح (خَيْر).

والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟ فإن قلتم باختياره فكلُّ مختار مرضي مصطفى محبوب، فتكون مرضية محبوبة له، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره، وجوابه أن يقال ما تعنون بالاختيار العام في اصطلاح المتكلمين أهو المشيئة والإرادة، أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار، لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال: واقعة بمشيئته وقدرته.

وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى، وإن كانت واقعة بمشيئته.

فإن قيل: فهل تقولون أنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك؟ قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات، كقوله: ﴿فَمَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنْهِكَ فَتْرَةً﴾ [الإسراء: ١٦].

وقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك.

وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ﴾

أَلَيْسَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] فهي مرادة

بالمعنى الأول غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضاً نوعان:

كوني كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وديني أمري كقوله: ﴿ءَلَا لِلَّهِ آذُنٌ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩].

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩].

ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه وما هو خير، سُميت الإرادة اختياراً، وهذا يتضمّن أنّ الإرادة لا ترجح نوعاً على نوع إلا لمرجح رجح ذلك النوع عند الفاعل.

والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال^(١)، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم وما يقتضي اختيارهم من قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم، وذكر علمه الدالّ على مواضع حكمته واختياره، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة؛ فإنه

سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] ولهذا قطعت (قبل) عن الإضافة وبنيت؛ لأنّ المضاف منوي معلوم وإن كان غير مذكور في اللفظ، وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم المخلوق عليه: محمد وإبراهيم وموسى، وقد قيل: ﴿من قبل﴾ أي في حال

(١) الصواب: أن شبه الجملة (على علم) في موضع نصب على الحال.

صغره قبل البلوغ، وليس في اللفظ ما يدلُّ على هذا، والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر.

وقيل: المعنى بقوله ﴿من قبل﴾ أي في سابق علمنا، وليس في الآية أيضاً ما يدلُّ على ذلك، ولا هو أمرٌ مختص بإبراهيم، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه.

والمقصود من قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ قال البغوي: إنَّه أهل للهداية والنبوة^(١).

وقال أبو الفرج: أي عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد^(٢).

وقال صاحب الكشاف: المعنى علمه به أنه علم منه أحوالاً بدیعة، وأسراراً عجيبة، وصفات قد رضىها وحمدها، حتى أهله لمخالته ومخالسته، وهذا كقولك في خيرٍ من الناس: أنا عالم بفلان، فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف^(٣).

وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آخَرْنَا نُهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢].

ونظيره قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ مَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

الْعَالَمِينَ﴾ [ذُرِّيَّةٌ مِمَّنْهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاللَّهُ يَعْصِمُ عَمَلَهُمُ] [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

وقريب منه قوله: ﴿وَأَسْلَمْنَا نَاصِرًا وَرَأِيًا إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ مِنَّا مِنَ الْأَكْفَامِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا

وَكَتَابًا بِكُلِّ شَأْنٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي.

(١) تفسير البغوي (٣/٢٤٧).

(٢) زاد المسير (٥/٣٥٧).

(٣) الكشاف (٣/١٢١).

وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره من يختاره من خلقه وإضلاله من يضلّه منهم؛ فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

بيّن سبحانه أنّ ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه، فهذه الآية تضمّنت الحضّ على التزام أمر الله وإن شقّ على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس .

وفي حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدّرهُ لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»^(١).

ولما كان العبدُ يحتاجُ في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاذه إلى علم ما فيه من المصلحة وقدرته عليه وتيسره له، وليس له من نفسه شيء من

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢) في الدعوات، باب: الدعاء عند الاستخارة، والترمذي (٤٨٠) في الوتر، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، وابن ماجه (١٣٨٣) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، وأحمد (٣/٣٤٤).

ذلك، بل علمه ممن علّم الإنسان ما لم يعلم، وقدرته منه، فإن لم يقدره عليه، وإلا فهو عاجز، وتيسيره منه فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره؛ أرشده النبي ﷺ إلى محض العبودية؛ وهو جلب الخيرة من العالم بعواقب الأمور وتفصيلها وخيرها وشرّها، وطلب القدرة منه فإنه إن لم يقدره وإلا فهو عاجز وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسّره له من فضله فهو يحتاج إلى أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه، والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد على إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه به، فإنه قد يهيبه له ما يكرهه، فيظل ساخطاً ويكون قد خار الله له فيه.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ تَعَالَى، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ. وَمِنْ شَقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ شَقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ»^(١).

فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله والرضا بعده، فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إيّاه أن يختار قبل وقوعه ويرضى بعد وقوعه، ومن خذلانه

(١) رواه الترمذي (٢١٥١) في القدر، باب: ما جاء في الرضا بالقضاء، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبي حميد، ويقال له أيضاً حماد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم المدني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث، وأحمد (١/١٦٨) وقال ابن حجر: وسنده حسن، ورواه الحاكم (٥١٨/١) وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره الذهبي في (ميزان الاعتدال ٥٣١/٣) في ترجمة محمد بن أبي حميد، وقال: ضعفه، وانظر: (فيض القدير ١٥/٦).

له ألا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضى به بعد وقوعه.

وقال عمر بن الخطاب: لا أبالي أصبحتُ على ما أحبُّ أو على ما أكره؛ لأنني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره.

وقال الحسن: لا تكرهوا النقمات الواقعة، والبلايا الحادثة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك.

ومما يناسب هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧].

بيّن سبحانه حكمة ما كرهه عام الحديبية من صدّ المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبيّن لهم أنّ مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١] فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر، وظهور الإسلام، وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلّم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكلّ أحد بغى المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمداً وأصحابه أولو الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلاّ العدوان والعناد؛ فإنّ البيت الحرام لم يصدّ عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العربُ عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطفيانهم وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي

علمها الله ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحاً، وسُئِلَ النبي ﷺ: أفتح هو؟ قال: «نعم»^(١).

ويشبه هذا قول يوسف الصديق: ﴿يَتَأْتِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠] فأخبر أنه يلفظ لما يريد فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس^(٢).

والحكيم: الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه، فهو المحسن الجواد الحكيم العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محلّه وهياّه له، وهو سبحانه له الخلق والأمر، فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما وأصلحهما، وليس في الشريعة أمرٌ يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهى عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده.

فإن قلت: فإذا كان وجوده خيراً من عدمه، فكيف لا يشاء وجوده؟ فإذا كان عدمه خيراً من وجوده فكيف يشاء وجوده؟ فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية.

قلت: لا تنقضها لأن وجوده وإن كان خيراً من عدمه؛ فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا

(١) رواه عبد بن حميد عن عامر الشعبي أن رجلاً سأل النبي ﷺ يوم الحديبية: أفتح

هذا؟ فقال النبي ﷺ: «نعم عظيم». (الدرّ المنتور ٧/٥١٠).

(٢) شفاء العليل ص (٢٩).

المعنى، وعدم المنهي وإن كان خيراً من وجوده، فقد يكون وجوده وسيلة وسبباً إلى ما هو أحب إليه من عدمه.

والربُّ سبحانه إذا أمر بشيء فقد أحبه ورضيه وأراده وبيّته، وهو لا يحب شيئاً إلا ووجوده خيراً من عدمه، وما نهى عنه فقد أبغضه وكرهه، وهو لا يبغض شيئاً إلا وعدمه خير من وجوده، هذا بالنظر إلى ذات هذا وهذا، وأما باعتبار إفضائه إلى ما يحب ويكره فله حكم آخر.

ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم^(١)، فالأحسن هو المأمور به، وهو خير من المنهي عنه، وإذا كانت هذه سُنَّتَه في أمره وشرعه، فهكذا سنته في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيراً من ألا يخلقه ولا يفعله، وبالعكس، وما كان عدمه خيراً من وجوده فوجوده شر، وهو لا يفعله بل هو منزّه عنه، والشر ليس إليه.

فإن قلت: فلم خلقه وهو شر؟ قلت: خلقه له وفعله خير لا شر، فإنَّ الخلق والفعل قائم به سبحانه، والشر يستحيل قيامه به واتصافه به، وما كان في المخلوق من شرّ فلعدم إضافته ونسبته إليه، والفعل والخلق يضاف إليه فكان خيراً، والذي شاءه كله خير، والذي لم يشأ وجوده بقي على العدم الأصلي وهو الشر، فإنَّ الشرّ كلّه عدم، وإن سببه جهل وهو عدم العلم، أو ظلم وهو عدم العدل، وما يترتب على ذلك من الآلام فهو من عدم استعداد المحل وقبوله لأسباب الخيرات واللذات.

فإن قلت: كثير من الناس يطلق القول بأنَّ الخير كلّه من الوجود

(١) في قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

ولوازمه، والشّرّ كله من العدم ولوازمه، والوجود خير، والشّرّ المحض لا يكون إلاّ عدماً.

قلت: هذا اللفظ فيه إجمال، فإن أريدَ به أن كل ما خلقه الله وأوجده ففيه الخير ووجوده خير من عدمه، وما لم يخلقه ولم يشأه فهو المعدوم الباقي على عدمه ولا خير فيه، إذ لو كان فيه خير لفعله، فإنه بيده الخير، فهذا صحيح. فالشّرّ العدمي هو عدم الخير، وإن أريدَ أن كل ما يلزم الوجود فهو خيرٌ، وكل ما يلزم العدم فهو شرٌّ فليس بصحيح؛ فإنّ الوجود قد يلزمه شرّ مرجوح، والعدم قد يلزمه خير راجح.

مثال الأول النار والمطر والحر والبرد والثلج ووجود الحيوانات، فإن هذا موجود ويلزمه شرٌّ جزئي مغمور بالنسبة إلى ما في وجود ذلك من الخير، وكذلك المأمور به قد يلزمه من الألم والمشقة ما هو شرٌّ جزئي مغمور بالنسبة إلى ما فيه من الخير.

وتحقيقُ الأمر أنّ الشّرّ نوعان: شرّ محض حقيقي من كلِّ وجه، وشرٌّ نسبي إضافي من وجه دون وجه.

فالأول لا يدخل في الوجود؛ إذ لو دخل في الوجود لم يكن شرّاً محضاً.

والثاني هو الذي يدخل في الوجود. فالأمور التي يقال هي شرور، إما أن تكون أموراً عدمية أو أموراً وجودية، فإن كانت عدمية فإنها إما أن تكون عدماً لأمور ضرورية للشيء في وجوده، أو ضرورية له في دوام وجوده وبقائه، أو ضرورية له في كماله. وإما أن تكون غير ضرورية له في وجوده ولا بقاءه ولا كماله وإن كان وجودها خيراً من عدمها. فهذه أربعة أقسام، فالأول كالإحسان والحركة والنفس للحيوان، والثاني كقوة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي، والثالث كصحته وسمعه وبصره وقوته،

والرابع كالعلم بدقائق المعلومات، التي العلم بها خير من الجهل وليست ضرورية له.

وأما الأمور الوجودية فوجود كل ما يضاد الحياة والبقاء والكمال كالأمراض وأسبابها، والآلام وأسبابها. والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير ووصوله إلى المحل القابل له المستعد لحصوله، كالمواد الرديئة المانعة من وصول الغذاء إلى أعضاء البدن وانتفاعها به، وكالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضرارها للقلب.

إذا عرف هذا فالشّر بالذات هو عدم ما هو ضروري للشيء في وجوده أو بقائه أو كماله، ولهذا العدم لوازم من شر أيضاً؛ فإن عدم العلم والعدل يلزمهما من الجهل والظلم ما هو شرور وجودية، وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والضرر ما هو شر وجودي. وأما عدم الأمور المستغنى عنها كعدم الغنى المفرط، والعلوم التي لا يضرّ الجهل بها، فليس بشرّ في الحقيقة، ولا وجودها سبباً للشّر؛ فإن العلم منه حيث هو علم، والغنى منه حيث هو غنى، لم يوضع سبباً للشّر، وإنما يترتب الشر من عدم صفة تقتضي الخير كعدم العفة والصبر والعدل في حق الغني، فيحصل الشر له في غناه بعدم هذه الصفات، وكذلك عدم الحكمة ووضع الشيء موضعه وعدم إرادة الحكمة في حق صاحب العلم يوجب ترتب الشر له على ذلك، فظهر أنّ الشرّ لم يترتب إلا على عدم، وإلا فالموجود من حيث وجوده يكون شراً ولا سبباً للشّر، فالأمور الوجودية ليست شروراً^(١).

ثم إنّ إنكاره سبحانه أن يسوّي بين المختلفين، أو يُفرّق بين

(١) شفاء العليل ص (١٨٠).

المتماثلين، فلأن حكمته وعدله يأبى ذلك .

أما الأول فبقوله: ﴿ أَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] فأخبر أن هذا حكم باطل جائر، يستحيل نسبه إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه، ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه .

وقال تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُوا الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٨] .

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْعَلُهُمْ وَمَا يَحْكُمُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ [الجاثية: ٢١] فجعل سبحانه ذلك حكماً سيئاً يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن ينسب إليه .

بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وأن حكمته تأبى ذلك كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٤] .

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٦] ^(١) .

فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته .

(١) «وليجنة»: بطانة، وأصحاب سرّ، وأولياء .

وأما الثاني وهو ألا يفرق بين المتماثلين، فقولوه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولُو الْأَرْحَامِ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمْ الْوَسْءُ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَأْتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقوله: ﴿أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

وقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَاللَّكِنِينَ أَثْلَهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقوله: ﴿سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

وقوله: ﴿سَأَلْتُ اللَّهَ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِي﴾ [غافر: ٨٥].

فستته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم، وإهانة أولئك وإذلالهم وكتبهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥] والقرآن مملوء من هذا، يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضد حكم مضاده ومخالفه.

وحكمته عز وجل تستلزمُ وَضَعَ كلِّ شيءٍ موضعه الذي لا يليق به
سواه، فاقتضت خلق المتضادات، وتخصيص كلِّ واحد منها لا يليق به
غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك؟! .

ثم إنَّ حَمْدَهُ سبحانه تام كامل من جميع الوجوه، فهو محمودٌ على
عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانتة، كما هو محمود على فضله وعطائه
ورفعه وإكرامه، فللَّه الحمدُ التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه
على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه، ويحمده عليه أهلُ
الموقف جميعهم.

وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة
التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيلُ حمده كما لا يجوز
تعطيل حكمته.

وهو سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته
وجوده؛ فاقتضى ذلك خَلْقَ من يشرك به ويضاده في حكمه، ويجتهد في
مخالفته، ويسعى في مسأخطه، بل يشبهه سبحانه، وهو مع ذلك يسوق
إليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعاقبه، ويُمكن له من أسباب ما يلتذُّ به من
أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من بره
وإحسانه بضدِّ ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فللَّه كم في ذلك
من حكمة وحمداً ويتحجب إلى أوليائه، ويتعرَّف بأنواع كمالاته كما في
الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا أَحَدَ أَصْبِرُ على أذى يسمعه من الله يجعلون
له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم»^(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ فيما يروي عن ربه: «شتمني ابنُ آدمَ وما

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥).

ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك. أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بداني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليّ من إعادته»^(١).

وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب، ويعافيه، ويدفع عنه، ويدعوه إلى جنته، ويقبل توبته إذا تاب إليه، ويبدله بسيئاته حسنات، ويلطف به في جميع أحواله، ويؤهله لإرسال رسله، ويأمرهم بأن يلينوا له القول ويرفقوا به.

قال الفضيل بن عياض: ما من ليلةٍ يختلطُ ظلامُها إلا نادى الجليلُ جلّ جلاله: مَنْ أعظمُ مني جوداً؟ الخلائق لي عاصون وأنا أكلوهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولّى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء.

من ذا الذي دعاني فلم ألبّه؟ ومن ذا الذي سألتني فلم أعطه؟ أنا الجواد، ومنّي الجود. أنا الكريم ومنّي الكرم، ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألتني، وأعطيه ما لم يسألني. ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟ وفي أثر إلهي: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبدُ غيري، وأرزق ويُشكر سواي».

وفي أثر حسن: «ابن آدم! ما أنصفتني، خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك! وكم تتبغض إليّ بالمعاصي

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤) في التفسير، باب: سورة «قل هو الله أحد» والنسائي

(١١٢/٤) في الجنائز، باب: أرواح المؤمنين، وأحمد (٣١٧/٢)، ٣٥٠.

وأنت فقير إلي! ولا يزال المَلَكُ الكريم يعرج إليّ منك بعمل قبيح». وفي الحديث الصحيح: «لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم»^(١).

فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلقَ خَلْقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله؛ بل يكون يحب أمانه وإمهاله. ولمحبته لعدله، وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته. ولمحبته للجدود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان، فلولا خَلْقُ مَنْ يُجْرِي على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها، فتبارك الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين، ذو الحكمة البالغة والنعمة السابغة، الذي وصلت حكمته إلى حيث وَصَلَتْ قدرته، وله في كلّ شيء حكمة باهرة، كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات إنما ذكرنا منه قطرة من بحر، وإلا فعقولُ البشر أعجز وأضعفُ وأقصر من أن تحيطَ بكمال حكمته في شيء من خلقه^(٢).

وقال بعضُ المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة^(٣)؛ لأنَّ علمه متعلقٌ بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلقاً واحداً، بخلاف علم المحدثين؛ فإن معرفتهم بالشيء المفرد وعلمهم به غير

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨) في التوبة، باب: سقوط الذنب بالاستغفار توبة، من حديث أبي أيوب، و(٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة، ورواه أحمد (١/٢٨٩ و٢/٣٠٥).
(٢) شفاء العليل ص (٢٣٨).
(٣) انظر الفروق بين العلم والمعرفة، وما يطلق على الله سبحانه منهما في (الفروق في اللغة) لأبي هلال العسكري ص (٧٢ - ٧٣).

علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلها بعلم واحد، وأن علمه بصدق رسول الله ﷺ هو عين علمه بكذب مُسلمة، والذي عليه محققو النظر خلاف هذا القول، وأن العلوم متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها، فلكلّ معلوم علم يخصّه، ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجعة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به .

وعلى هذا فالفرقُ بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الأفراد والتركيب في متعلق العلم، وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها؛ فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوب عن القلب، فإذا تصوّر وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه قيل: عرفه، ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيت بعد زمان فتبينت أنه هو قلت: عرفته، وكذلك عرفت اللفظة، وعرفت الديار، وعرفت المنزل، وعرفت الطريق؟!

وسرُّ المسألة أن المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه، فالمعرفة تميز له وتعيين. ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾^(١) [البقرة: ١٤٦] فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته وجاء كما يعرفون آبائهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين بالآخر، فتأمل. وقد بسطنا هذا في كتاب «التحفة المكية»^(٢) وذكرنا فيه من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف.

(١) تمام الآية: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦] والحديث عن صفة النبي ﷺ .
(٢) هو كتاب لابن قيم الجوزية، ويُعتبر في عداد الكتب المفقودة.

وأما ما زعموا من قولهم إن (عَلِمْتَ) قد يكون بمعنى (عرفت)،
واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُ حُسْرَتُنَّ تَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

ويقوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول
واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر، على أنه قد قال بعض
الناس. أن تعدّي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا
يخرجها عن كونها علماً على الحقيقة؛ فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد
على نحو تعدّي (عرفت)، ولكن على جهة الحذف والاختصار، فقوله:
﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما
تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم^(١).

وكذلك قوله: ﴿وآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فربما
كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلّق العلم بالصفة المضافة إلى
الموصوف لا بعينه وذاته قال هذا، وإنما مثل من يقول أن علمت بمعنى
عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ؛ كمثل من يقول
أنّ سألت يتعدّى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار،
ويحتجّ بقوله ﴿وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف وكذلك ما تقدم، وليس ما
قاله هؤلاء بقوي، فإنّ الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك
المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفى معرفة نفاقهم من جهة
اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/٢٤٠ - ٢٤١).

في غيرهم؛ ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطوا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم؛ فإنَّ اللفظ لم يدلَّ على ذلك بوجه، والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول^(١)، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يُظهِرُ له الإسلام ويُنطِنُ عداوته وعداوة الله عز وجل.

والذي يزيد هذا وضوحاً الآية الأخرى، فإن قوله: ﴿وَالْأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمَا لَا نَعْلَمُونَهُنَّ اللَّهُ يَعْلَمُهُنَّ﴾ [الأنفال: ٦٠] فيه قولان: أحدهما أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله، وعلى هذا فالآية نصّ في أنّ العلم فيها بمعنى المعرفة^(٢).

وقال ابن القيم نظاماً:

وَالْحِكْمَةُ الْعُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْ	ضَاحِضًا بِقَوَاعِدِ الْبُرْهَانِ
إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ	نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ
إِحْكَامُ هَذَا الْخَلْقِ إِذْ يُجَادُهُ	فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالْإِنْتِقَانِ
وَصُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ	وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدٌ كُلُّ لِسَانٍ
وَالْحِكْمَةُ الْأُخْرَى فَحِكْمَةٌ شَرَعَهُ	أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الْوَصْفَانِ
غَايَاتُهَا اللَّائِي حُمِدُنْ وَكُونُهَا	فِي غَايَةِ الْإِنْتِقَانِ وَالْإِحْسَانِ

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في شرحه لهذه الآيات:

وحكمته نوعان: أحدهما: الحكمة في خلقه؛ فإنه خلق الخلق بالحق

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

(٢) بدائع الفوائد (٢/٦٢).

ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيبته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدرُوا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان، وهذا أمرٌ معلومٌ قطعاً بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر.

وقد تحدّى عباده أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل، هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليله عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته^(١).

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره؛ فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب، فهل هناك كرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمتن الله عليه بها وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في شرعه وأمره إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق

(١) في قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿[الملك: ٣، ٤].

الجزاء، وخلقت الجنة والنار لكانت كافية شافية .

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً و يقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرتة خالصة أو راجحة .

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لَمَّا كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح .

ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هداة، ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم .

وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدرُوا على ذلك ما داموا على حالهم؛ ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه .

السميح البصير

السَّمْعُ يُرَادُ بِهِ إدراك الصوت، ويراد به فُهْم المعنى، ويُراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن الأول قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع له، ذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة^(١) تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعضُ كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(٢) [المجادلة: ١] فالسميع: الذي قد استوى في سمعه سرّ القول وجهره، وسع سمعه الأصوات؛ فلا تختلف عليه أصوات الخلق، ولا تشبهه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه كثرة السائلين.

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

(١) المجادلة: هي خولة بنت ثعلبة، جاءت تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أوس بن الصامت.

(٢) رواه البخاري تعليقاً (٣٧٢/١٣)، وابن ماجه (١٨٨) في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأحمد (٤٦/٦)، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه، كما في الدر المنثور (٦٩/٨)، وأخرجه الحاكم وصححه بلفظ: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء.

[الأنفال: ٢٣] أي لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾
 [الأنفال: ٢٣] لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم
 آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم
 معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
 زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَلِكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَّةً وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَكُمْ﴾
 [التوبة: ٤٧] ^(١) أي قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿سَمَّوَتْ لِلْكَذِبِ﴾
 [المائدة: ٤٢] أي قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلي:
 سمع الله لمن حمده، أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه، وقول
 النبي ﷺ: «إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا: ربنا ولك الحمد،
 يسمع الله لكم» ^(٢) أي يجيبكم ^(٣).

ويندفع شرُّ الحاسدِ عن المحسود بعشرة أسباب: أحدها: التعوذ بالله
 من شره، والتحصن به، واللجأ إليه، والله تعالى سميعٌ لاستعاذته، عليم
 بما يستغيد به.

والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام، فهو مثل قوله:
 سمع الله لمن حمده. وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعْوَى﴾ ﴿١٣٦﴾
 [إبراهيم: ٣٩]، ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيد

(١) «خبالاً»: شراً وفساداً، أو عجزاً وجُبناً. «الأوضاع خلالكم»: لأسرعوا بينكم
 بالنمائم لإفساد ذات البين.

(٢) رواه مسلم (٤٠٤) في الصلاة، باب: التشهد في الصلاة، والنسائي
 (١٩٦/٢ - ١٩٧) في الافتتاح، باب: قوله ربنا ولك الحمد.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص ٧٩)، وطريق المهجرتين (ص ١٦٦).

ذلك، فإنه يستعيدُ به من عدو يعلم أن الله يراه ويعلم كيدَه وشره، فأخبر اللهُ تعالى هذا المستعيدُ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره، لينبسط أملُ المستعيد، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحَم السجدة^(١)، وجاءت الاستعاذة من شرّ الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حَم المؤمن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْتَرِسُ أَتْلَانِ أَنَّهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاسْتَغْذِبُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال مُعَايَنَة تُرى بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يُلقِيها في القلب، يتعلّق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر ويُدرَك بالرؤية^(٢).

كما جَرَتْ عادةُ القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَسَدَ الثَّوَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

والقرآن مملوءٌ من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أني أسمع

(١) قال تعالى: ﴿وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقال عز وجل: ﴿وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [فصلت: ٣٦].

(٢) بدائع الفوائد (٢/٢٣٨).

ما يردون به عليك، وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون.

ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان: أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجبها. والثاني: قابلوها بالتكذيب ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر، فقدّم ما يتعلق به على ما يتعلّق بالمبصر.

وتأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَّ

وَأَرْوَعٌ ﴿١٦﴾ [طه: ٤٦] هو يسمع ما يجيبهم ويرى ما يصنعه، وهذا لا يعمّ سائر المواضع بل يختصّ منها بما هذا شأنه.

ثم إن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام مع غاية البعد بين السامع والمسموع أشدّ من إنكارها لرؤيته مع بعده. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا^(١). ولم يقولوا أترون الله يرانا، فكان تقديم السمع أهمّ، والحاجة إلى العلم به أمس^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٨١٧) في التفسير، باب: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾، ومسلم (٢٧٧٥) في صفات المنافقين وأحكامهم.
(٢) بدائع الفوائد (١/٧٣).

العدل

العدل: الذي يتصرف بالعدل في عبادته، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضلته، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفسّر بين الحكم والقضاء؛ فجعل القضاء للحكم والعدل للقضاء^(١)، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين، قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه، قال: «عَدْلٌ فِيَّ قِضَاؤُكَ» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء

(١) كما في الحديث: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً». رواه أحمد (١/٣٩١).

تنفيذه وقد لا ينفذه، فإن كان حكماً دينياً فهو ماضٍ في العبد، وإن كان كونياً فإن نفعه سبحانه مضى فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه فهو سبحانه يمضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه، وهو سبحانه يقضي ويمضي فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «عدل في قضاؤك» يتضمّن جميع أفضيته في عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كُتِبَتْ إِلَيْكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال: ﴿وَأَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها، فإن العدل في العقوبة عليها ظاهر؟

قيل: هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته، قالوا: لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير، والله له كل شيء، فلا يكون تصرفه في حقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاؤه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه

لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلًا، وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضلَّ مَنْ شاء وقضى بالمعصية والغَيِّ على من شاء؛ فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به، كيف ومن أسمائه الحسنی (العدل) الذي كلُّ أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العِلل، ومكَّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله. ووفق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله، وخذَل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخَلَى بينه وبين نفسه ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه؛ فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله.

وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة، والموافقة عليه، وتناسي ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: ألا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية، ولا يشكره عليه، ولا يشني عليه بها، ولا يحبه، فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محلّه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِثْرٌ يَبِينُنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾^(١) [الأنفال: ٢٣].

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحيّة بأن تقتل، وعلى العقرب، وعلى الكلب العقور، كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة.

والمقصود أن قوله ﷺ: «ماضٍ فيّ حكمك، عدلٍ فيّ قضاؤك» ردّ على الطائفتين القدرية الذين ينكرون عموم أفضية الله في عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهي، وعلى الجبرية الذين يقولون: كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «عدل فيّ قضاؤك» فائدة، فإن العدل عندهم كلّ ما يمكن فعله، والظلم هو المحال لذاته، فكانه قال: ماضٍ ونافذ فيّ قضاؤك، وهذا هو الأول بعينه^(٢).

وكلّ نعمة منه فضل، وكلّ نقمة منه عدل، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها، وأنه سبحانه لم يكلف عباده إلاّ وسعهم وهو دون طاقتهم، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم فإنه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع، وأنه سبحانه لا يعاقب أحداً بغير فعله ولا يعاقبه على فعل

(١) ذكر ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيراً لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره، حتى يعقلوا عن الله حججه منه، ولكنه قد علم أن لا خير فيهم، وأنهم مما كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. جامع البيان (٢١٢/٩ - ٢١٣).

(٢) الفوائد (ص ٢٣).

غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه^(١).

وإن الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات. فإن ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثمَّ شرع الله ودينه. والله سبحانه أعلم وأحكم، وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها، وأقوى دلالة، وأبين أمارة. فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق: أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأبي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين، ليست مخالفة له^(٢).

والعدل وَضِعُ الأشياء في مواضعها التي تليق بها، وإنزالها منازلها كما أن الظلمَ وَضِعُ الشيء في غير موضعه.

وقد تسمى سبحانه بالحكم العدل، والقدرية تنكر حقيقة اسم الحكم، وتردّه إلى الحكم الشرعي الديني، وتزعم أنها تثبت حقيقة العدل، والعدل عندهم إنكار القدر، ومع هذا فينسبونهُ إلى غاية الظلم، فإنهم يقولون: إنه يخلد في العذاب الأليم من أفنى عمره في طاعته ثم فعل كبيرة ومات عليها.

فإن قيل: فالقضاء بالجزاء عدل، إذ هو عقوبة على الذنب، فيكون القضاء بالذنب عدلاً على أصول أهل السنة، وهذا السؤال لا يلزم القدرية ولا الجبرية، أما القدرية فعندهم أنه لم يقض المعصية. وأما الجبرية

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٧).

(٢) الطرق الحكمية (ص ١٤).

فعندهم أن كلّ مقدور عدل، وإنما يلزمكم أنتم هذا السؤال.

قيل: نعم كلّ قضائه عدل في عبده، فإنه وضع له في موضعه الذي لا يحسن في غيره، فإنه وضع العقوبة ووضع القضاء بسببها وموجبها في موضعه، فإنه سبحانه كما يجازي بالعقوبة فإنه يعاقب بنفس قضاء الذنب، فيكون حكمه بالذنب عقوبة على ذنب سابق، فإن الذنوب تكسب بعضها بعضاً، وذلك الذنب السابق عقوبة على غفلته عن ربه وإعراضه عنه، وتلك الغفلة والإعراض هي في أصل الجبلّة والنشأة، فمن أراد أن يكمله أقبل بقلبه إليه، وجذبه إليه، وألهمه رشده، وألقى فيه أسباب الخير، ومن لم يرد أن يكمله تركه وطبعه، وخلق بينه وبين نفسه؛ لأنه لا يصلح للتكميل، وليس محله أهلاً ولا قابلاً لما وضع فيه من الخير، وها هنا انتهى علم العباد بالقدر.

وأما كونه تعالى جعل هذا يصلح، وأعطاه ما يصلح له، وهذا لا يصلح، فمنعه ما لا يصلح له فذاك موجب ربوبيته وإلهيته وعلمه وحكمته؛ فإنه سبحانه خالق الأشياء وأضدادها، وهذا مقتضى كماله وظهور أسمائه وصفاته.

والمقصود أنه أعدل العادلين في قضائه بالسبب وقضائه بالمسبب، فما قضى في عبده بقضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره؛ إذ هو الحكم العدل الغني الحميد^(١).

(١) شفاء العليل (ص ٢٧٦).

اللطيف

اللطيفُ يتضمَّن علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية. ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه، وإلقائه في السجن، وبيعه رقيقاً، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه، وكذبها عليه، وسجنه، محناً ومصائب، وباطنها نعماً وفتحاً، جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب ما يتلبي به عباده من المصائب، ويأمرهم به من المكاره، وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفَّت الجنة بالمكاره وحفَّت النار بالشهوات، وقد قال ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»^(١).

فالقضاء كلّه خير لمن أعطي الشكر والصبر جالباً ما جلب.

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) في الزهد والرفائق، باب: المؤمن أمره كلّه خير، وأحمد (٣٣٢/٤).

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء، وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلى غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سبباً أخرجه من مصر وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سبباً أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهارين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون، هذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريد من العواقب الحميدة والحكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمنها من الرحمة التامة، والنعمة السابغة، والتعريف إلى عباده بأسمائه وصفاته، فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة من حكمه بالغة لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها!

وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب.

وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية، التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها، وهذا أمرٌ يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبيأؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم،

وأتمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علماً بذلك كله قبل السموات والأرض، وقدره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابة ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب ولما كتبه الملائكة، لا يزيد شيئاً ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد كما كتبه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي، والخير والشر، بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعداراً إليهم وإقامة للحجة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار.

وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُم أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى

الْمَاءِ ﴾ [هود: ٧].

فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه^(١)، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضاً، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالوا به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وإن خبّر في الآية الأولى أنه زين لهم ما على الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده عليه، وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً بعد أن كان غيباً في علمه.

فابتلى أبوي الإنس والجن كلّ منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلماذا قال للملائكة: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلى يوم القيامة فابتلى الأنبياء بأمرهم وابتلى أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: ﴿ إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَّبِلٌ بِكَ ﴾^(٢).

وقال: ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْغَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي الحديث الصحيح: أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم: أبرص وأقرع

(١) تمام الآية: ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [هود: ٧].

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، بلفظ: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

وأعمى، فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه، وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغنى، وبذل للسائل ما طلبه شكر الله. وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كانا عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وقال في الغني: إنما أوتيته كإبراً عن كابر^(١).

وهذا حال أكثر الناس، لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقص أو جهل وفقر وذنوب، وإن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه، وأنعم بذلك عليه، ولهذا ينبه سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره ومن حال إلى حال، حتى جعله بشراً سوياً؛ يسمع ويبصر، ويقول وينطق، ويبطش ويعلم، فنسي مبداه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال تعالى:

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ آتِمِيٍّ مِّنْهُمُ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

[المعارج: ٣٨ - ٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفردّه بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سُدى، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، ومسلم (٢٩٦٤) في الزهد والرفائق.

ويكذبون رسلي، ويعبدون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم؟!]

ويشبه هذا قوله: ﴿فَمَنْ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧] وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بخلقائه، كما تضمنته سورة النعم، وهي سورة (النحل) من قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ وَالْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْمِكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ [النحل: ٨١]^(١).

فذكرهم بأصول النعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له؛ فتكلم نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عن كفره ولم يشكر نعمه بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: المساكن والأنعام، وسراويل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا ورثناه عنهم^(٢).

(١) «ظلالاً»: أشياء تستظلون بها كالأشجار.

«أكناناً»: مواضع تستكنون فيها.

«سراويل»: ما يُلبس من ثياب أو دروع.

«تقيكم بأسكم»: أي: الضرب والطعن في حروبكم.

(٢) تفسير مجاهد (١/٣٥٠).

وقال عون بن عبد الله: يقولون لولا فلان لكان كذا وكذا^(١).

وقال الفراء وابن قتيبة: يعرفون أنّ النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا^(٢).

وقالت طائفة: النعمة هاهنا محمد ﷺ وإنكارها جحدهم نبوته، وهذا يروى عن مجاهد والسدي^(٣)، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو أجلّ النعم أن تكون نعمة.

وأما على القول الأول والثاني والثالث؛ فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله لقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال: إنما كان هذا لأبائنا ورثناه كابراً عن كابر جاحداً لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع اللذين ذكّرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكرا، وقالوا: إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر، فقال: إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما، وكونها موروثه عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آباءهم، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه.

وأما قول الآخرين: لولا فلان لما كان كذا، فيتضمّن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً، وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سبباً هو من نعم الله عليه، وهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر، وقد يسلبه تسيبته، وقد يجعل لها معارضاً

(١) الدر المنثور ٥/١٥٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١١٢ و(غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٨).

(٣) الدر المنثور ٥/١٥٥.

يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة.

وأما قول القائل: بشفاعة آلهتنا، فتضمّن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذلّ من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلاّ من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له؛ إذ ليس كلّ أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه!؟

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نَّمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومثته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذمّ الله سبحانه من آتاه شيئاً من نعمته فقال: إنما أوتيته على علم عندي.

وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِذَا مَنَّ الْإِنسَانُ صُرَدَعَانًا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِّثْلًا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الزمر: ٤٩] ^(١).

وقال البغوي: على علم من الله إني له أهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي ^(٢).

ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه باني أهله.

وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه: أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة وغيره.

(١) «خولناه نعمة»: أعطيناه إياها تفضلاً وإحساناً.

(٢) تفسير البغوي (٨٢/٤).

وقيل المعنى: قد علمت أي لما أوتيت هذا في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف، وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] أي النعم التي أوتيتها فتنة نخبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدلّ على اصطفاؤه واجتنابه، وأنه محبوب لنا مقرب عندنا، ولهذا قال في قصة قارون: ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

. فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدلّ على رضا الله سبحانه عمن آتاه ذلك، وشرف قدره، وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما أتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته، علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] أي النعمة فتنة لا كرامة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فآصَابَهُمْ مَسِيئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ مَسِيئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ - ٥١] أي: قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا.

قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله إذ آتاهم الدنيا، وفرحوا بها وطفخوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا.

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] المعنى أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئاً، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا، وهوانٍ من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق^(١): معنى الآية أن قولهم: إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله، أحبط أعمالهم، فكتفى عن إحباط العمل بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَوْا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠].

ثم أبطل سبحانه هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢].

والمقصود أن قوله: ﴿على علم عندي﴾ إن أريد به علمه نفسه كان المعنى: أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة التي توصلت بها إلى ذلك وحصلته بها، وإن أريد به علم الله كان المعنى: أوتيته على ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وإني أهله، وذلك من كرامتي عليه، وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿أوتيته﴾ ولم يقل حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدلَّ على اعترافه بأنَّ غيره آتاه إياه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ أي محنة واختبار، والمعنى أنه لم يوت هذا لكرامته علينا بل أوتيته امتحاناً منا وابتلاء واختباراً؛ هل يشكر فيه أم يكفر؟

وأيضاً فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦] فهو قد اعترف بأنَّ ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظنَّ أنه لكرامته عليه، فالآية على التقدير الأول تتضمن ذمَّ من أضاف النعم إلى نفسه وعلمه وقوته، ولم يضيفها إلى فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها، فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلى غيره كان جحداً لها، فإذا قال أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلى نفسه وأعجب بها،

(١) معاني القرآن للزجاج (٤/٣٥٧).

كما أضافها إلى قدرته الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتَاقُفَةً﴾ [فصلت: ١٥] فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنى عن هؤلاء قوتهم، ولا عن هذا علمه.

وعلى التقدير الثاني يتضمّن ذمّ مَنْ اعتقد أنّ إناعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقاً لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحقّ بها على الله أن ينعم عليه، وأنّ تلك النعمة جزاء له على إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتّصف به هو، لا ما قام برّبه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أنّ ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر، ليس ذلك جزاء على ما هو منه، ولو كان ذلك جزاء على عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعمُ عليه بذلك السبب، فهو المنعمُ بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجُوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرّة من الخير.

وعلى التقديرين؛ فهو لم يضيف النعمة إلى الرّبّ من كلّ وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه، وهو سبحانه وحده المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكلُّ نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه سبحانه، فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليّ تستوجب شكراً آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود^(١). ذكره الإمام أحمد.

وذكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أنّ لكلّ شعرة من

(١) الزهد لأحمد بن حنبل رقم (٣٧٣)، والشكر لابن أبي الدنيا (ص ٦٧).

شعري لسانيين يذكرانك بالليل والنهار والدهر كله؛ لما أدوا مالك علي من حق نعمة واحدة^(١).

والمقصود أن حال الشاكر ضد حال القائل ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ ظَنَرٍ عَنِي﴾ [القصص: ٧٨]، ونظير ذلك قوله: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ فَنُوطٌ﴾^(٢) وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ فَلْيُنَبِّئَنِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَاَلَّذِي نَفَقْتَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥٠].

قال ابن عباس: يريد من عندي^(٢).

وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا.

وقال مجاهد: هذا بعلمي وأنا محقوق به^(٣).

وقال الزجاج: هذا واجب بعلمي استحقيته.

فوصف الإنسان بأقبح صفتين؛ إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس، فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر، وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى^(٤)، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً^(٥).

(١) الزهد رقم (٣٦١)، والشكر (ص ٧٦).

(٢) تفسير القرطبي (٣٧٣/١٥).

(٣) تفسير مجاهد (٥٧٢/٢)، وتفسير الطبري (٣/٢٥).

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى [فصلت: ٥٠].

(٥) شفاء العليل (ص ٣٤).

وقال ابن القيم نظماً:

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده
إدراكُ أسرارِ الأمورِ بخبرة
واللطفُ في أوصافه نوعانِ
فيريك عزته ويؤدي لطفه
واللطفُ عند مواقع الإحسان
والعبدُ في الغفلاتِ عن ذا الشانِ

قال صاحب النهاية:

في أسماء الله تعالى «اللطيف» هو الذي اجتمع له الرفقُ في الفعل،
والعلمُ بدقائق المصالح وإيصالها إلى مَنْ قدرها له من خلقه، يقال: لَطَفَ به
وله، بالفتح، يَلُطِفُ لُطْفًا، إذا رفق به، فأما لَطُفٌ بالضم يَلُطُفُ فمعناه صَغُرُ
وَدَقُّ^(١).

وقال الراغب في «المفردات»:

وقد يُعَبَّرُ باللطائف عما لا تدركها الحاسة، ويصح أن يكونَ وصفُ الله
تعالى به على هذا الوجه، وأن يكونَ لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكونَ لرفقه
بالعباد في هدايتهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]،
﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي يحسنُ الاستخراجَ تبييناً على
ما أوصل إليه يوسف حيث ألقاه إخوته في الجُبِّ^(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

فهو سبحانه يَلُطِفُ بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف
له في الأمور الخارجة عنه؛ فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث
لا يشعر، وهذا من آثار علمه ورحمته وكرمه.

وقد ذكر المؤلف لهذا الاسم معنيين:

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٢٥١).

(٢) المفردات (ص ٤٥٠).

أحدهما: أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار وخفيات الأمور
ومكونات الصدور وما لطف ودق من كل شيء، فهو يعلم جميع الوجوه
الممكنة له، بحيث لا يشدُّ شيءٌ منها عن علمه وخبرته.

والثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يمنّ عليه ويشمله بلطفه
وكرمه، ويرفعه إلى المنازل العالية، ويسره لليسرى ويجنّبهُ العسرى، فهو
يجري عليه من أصناف المحن وألوان البلاء؛ ما علم أن فيه صلاحه
وسعادته وحسن العاقبة له في الدنيا والآخرة، كما امتحن الأنبياء بأذى
قومهم لهم، وبالجهاد في سبيله، وكما يمتحن أوليائه بما يكرهونه لينيلهم
ما يحبون؛ وهذا معنى قول المصنف (فيريك عزته) أي بامتحانك بما تكره
(ويبدي لطفه) أي في العواقب الحميدة والنهايات السارة.

وكم استشرف العبدُ على مطلوب من مطالب الدنيا، من ولاية أو
رئاسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه اللهُ عنها ويصرفها عنه
رحمةً به؛ لئلا تضرّه في دينه فيظلّ العبد حزيناً من جهله وعدم معرفته
بربه، ولو علم ما ذخر له في وجود خاص بالسائلين والطالبين، سواء
سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وسواء كان السائل مؤمناً أم كافراً،
براً أم فاجراً، فمن سأل الله صادقاً في سؤاله طامعاً في نواله، مستشعراً
الذلة والفقير بين يديه، أعطاه سؤاله، وأنال ما طلب، فإنه هو البرّ الرحيم،
الجواد الكريم.

ومن جوده الواسع سبحانه ما أعدّه لأوليائه في دار كرامته ومستقر
رحمته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(١).

(١) شرح القصيدة النونية (ص ٩١).

الحليم العفو

قال ابن القيم نظماً:

وهو الحليمٌ فلا يعاجلُ عبده بعقوبةٍ ليتوبَ من عصيان
وهو العفوُ فعفوه وسِعَ الورى لولاه غارَ الأرضُ بالشُّكَّان

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تعليقه على هذين البيتين: ومن أسمائه سبحانه «الحليم والعفو»، فالحليم: الذي له الحلم الكامل الذي وسِعَ أهلَ الكفر والفسوق والعصيان؛ حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة رجاءً أن يتوبوا؛ ولو شاء لأخذهم بذنوبهم فور صدورها منهم؛ فإنَّ الذُّنُوبَ تقتضي ترثبَ آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، ولكن حلمه سبحانه هو الذي اقتضى إمهالهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِ دَابَّةٌ وَلَا لَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥].

وأما العفو: فهو الذي له العفو الشامل الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب؛ ولا سيما إذا أتوا بما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات^(١)، وهو عفوٌ يحبُّ العفو، ويحبُّ من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه؛ من السعي في مرضاته

(١) لقوله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون﴾ [الشورى: ٢٥].

والإحسان إلى خلقه، ومن كمال عفوه أنه مهما أسرف العبد على نفسه ثم تاب إليه ورجع غفر له جميع جُرمه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الشَّاكِرُ الشُّكْرُور

إنَّ منزلة الشكر من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مندرجٌ في الشكر، إذ يستحيل وجودُ الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أنَّ أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو «الشكور»، وهو يُوصِلُ الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده.

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتِيَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ شاكراً لأنعمه أحبته وهدته إلى صراط مستقيم [النحل: ١٢٠ - ١٢١].

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُم

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [العنكبوت:

١٧]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

وسمى نفسه «شاكراً» و«شكوراً»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين،

فأعطاهم من وصفه، وسمّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين
وفضلاً وإعادته للشاكر مشكوراً، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنَّ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكَ

مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢].

ورضا الرب عن عبده به، كقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا بَرِّضُهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:

١٣] وقلة أهله في العالمين تدلّ على أنهم هم خواصه، كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ

عِبَادِي الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سبا: ١٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورّمت قدماه، فقيل له:

تفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا
أكون عبداً شكوراً»^(١).

وقال لمعاذ: «والله يا معاذاً إني لأحببك، فلا تنس أن تقول في دُبرِ

كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»^(٢).

(١) رواه البخاري (١١٣٠) في التهجد، باب: قيام النبي ﷺ الليل، ومسلم (٢٨١٩)

في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢) في الصلاة، باب: في الاستغفار، والنسائي في سننه =

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم أعني ولا تُعِنْ عليّ، وانصرني ولا تنصرْ عليّ، وامكُرْ لي ولا تمكُرْ بي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ. ربِّ اجعلني شَكَاراً لك، ذَكَاراً لك، رَهَاباً لك، مطاوِعاً لك، مخبِئاً إليك، أوَاهياً منيباً، ربِّ تقبَّلْ توبتي، واغسل حَوْبتي، وأجِبْ دَعوتي، وثبِّتْ حُجَّتِي، واهدِ قلبي، وسدِّدْ لساني، واسئَلْ سخيمةَ صدري»^(١)،^(٢).

ومبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشُّكر، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذِّكر القلبي واللساني، وذكره يتضمَّن ذكر أسمائه

= (٥٣/٣) في السهو، باب: نوع آخر من الدعاء، وفي (عمل اليوم والليلة رقم ١٠٩)، وأحمد (٢٤٥/٥)، وابن حبان (٢٣٤٥) «موارد»، والحاكم (٢٧٣/١) وصححه.

(١) رواه أحمد (٢٢٧/١)، وأبو داود (١٥١٠) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل إذا سلّم، والترمذي (٣٥٥١) في الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٣٠) في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ.

«امكُرْ لي»: مكر الله: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه.

«رهَاباً لك»: أي: خوفاً خاشعاً.

«مخبِئاً»: من الإخبات، وهو الخشوع والتواضع.

«أوَاهياً»: متضرعاً بكاءً.

«منيباً»: راجعاً بالتوبة.

«حَوْبتي»: إثمي.

«اسئَلْ»: انزع.

«السخيمة»: الحقد.

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٤٢).

وصفاته، وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح؛ وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً، وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفة، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه وهو ظن أعدائه به.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

[ص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا

بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾

[الحجر: ٨٥].

وقال بعد ذكر آياته في أول سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا

بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

[المؤمنون: ١١٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ مِثْلًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧] (١).

فتبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكَرَ وأن يُشكَرَ؛ يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاکر لمن شكره، فذكره سبب للذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان والشكر للقلب محبةً وإثابةً، ولللسان ثناءً وحمدًا، وللجوارح طاعةً وخدمةً (٢).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

ورد «الشكور» مقترناً باسمه «الغفور» في قوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ وَقَالُوا لَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا اللَّعْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

ومقترناً باسمه الحليم في قوله: ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعُوفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

ومعنى الشكور الذي يتقبل أعمال عباده ويرضاها، ويشيهم عليها،

(١) «قياماً للناس»: قواماً لمصالحهم ديناً ودنياً.

«الشهر الحرام»: الأشهر الحرم الأربعة.

«الهدى»: ما يهدي من الأنعام إلى الكعبة.

«القلائد»: ما يقلّد به الهدى علامة له.

(٢) الفوائد (١٥٧).

ويضاعفها لهم أضعافاً كثيرة على قدر إخلاصهم فيها وإتقانهم لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد ضَرَبَ اللّهُ في كتابه مثلاً للنفقة التي تنفق في سبيله بحبة أنبت سبع سنابل، في كلّ سنبله مئة حبة، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَاللّهُ يُضَوِّفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] إيذاناً بأنّ المضاعفة قد تتجاوز هذا القدر لمن يشاء.

وفي الحديث الصحيح: «من تصدّق بعدل تمره من كسب طيب - ولا يقبلُ الله إلا الطيب - فإنَّ اللّهُ يتلقاها بيمينه فيريها له كما يربي أحدكم فلّوه حتى تصيرَ مثلَ الجبلِ العظيم»^(١).

فسبحان من وفق عباده المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك بحسن ثوابه وجزيل عطائه، مِنَّةً مِنْهُ وتفضلاً لا حقاً عليه واجباً، بل هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً^(٢).

(١) رواه البخاري (١٤١٠) في الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب، ومسلم (١٠١٤) من طريق آخر، وقال ابن حجر: وقد غفل صاحب الأطراف فسوّى بين روايتي الصحيحين في هذا، وليس بجيد. (فتح الباري ٣/ ٢٨٠).

«بعدل تمره»: أي بقيمتها.

«فلّوه»: هو المهر لأنه يفلّى، أي: يفظم.

(٢) شرح القصيدة النونية ص (٩٨).

العلّي

العلّي: الذي علا عن كلّ عيب وسوء ونقص. ومن كمال علوّه ألا يكونَ فوقه شيء، بل يكون فوق كلّ شيء^(١).

(١) شفاء العليل (ص ١٨٠).

قال تعالى: ﴿وهو العلّيّ العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال إياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي عن أبيه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يستفتح دعاء الاستفتاح بـ: «سبحان ربي الأعلى العلّيّ الوهاب» رواه أحمد (٥٤/٤).

وقال الحلبي في معنى العلّي: إنّه الذي ليس فوقه فيما يجب له من معالي الجلال أحد، ولا معه من يكون العلوّ مشتركاً بينه وبينه، لكنّه العلّيّ بالإطلاق. قال: والرفيع في هذا المعنى، قال الله عز وجل: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥] ومعناه: الذي لا أرفع قدرأ منه، وهو المستحقّ لدرجات المدح والثناء، وهي أصنافها وأبوابها، لا مستحقّ لها غيره. (الأسماء والصفات ٤٥/١).

الكبير المتكبر

- الكبير من أسمائه والمتكبر .
قال قتادة وغيره: هو الذي تكبر عن سوء^(١) .
وقال أيضاً: الذي تكبر عن السيئات^(٢) .
وقال مقاتل: المتعظم عن كل سوء^(٣) .
وقال أبو إسحاق: الذي يكبر عن ظلم عباده^(٤) .

-
- (١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٦٧/٤) .
(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٥٦/٢٨) بلفظ: تكبر عن كل شر .
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٣٢٧/٤) بنحوه .
(٤) شفاء العليل (ص ١٨٠) .

الحفيظ

قال ابن القيم نظاماً:

وهو الحفيظُ عليهمُ وهو الكفيـفُ لـ بحفظهم من كل أمرٍ عان

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه لهذا البيت:

ومن أسمائه سبحانه الحفيظ، وله معنيان:

أحدهما: أنه يحفظُ على العباد ما عملوه من خيرٍ وشرٍ، وعُزِفَ ونُكِرَ، وطاعةٍ ومعصيةٍ؛ بحيث لا يفوته من ذلك مثقال ذرة، وحفظه لهذه الأعمال بمعنى ضبطه لها وإحصائه إيّاها، فهو محيطٌ علماً بجميع أعمالهم، ظاهرها وباطنها، وهو قد كتبها في اللوح المحفوظ قبل أن يراها، بل قبل أن يخلق السموات والأرض، وهو وَكَّلَ بها ملائكةَ حافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون.

قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبِينٍ ﴿١٢﴾ [يس: ١٢] (١).

وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ [المجادلة: ٦].

وقال: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا

(١) «إمام مبين»: أصل بين (اللوحة المحفوظ).

الْمَكْتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ
أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٣﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٤﴾﴾
[القمر: ٥٢ - ٥٣] (١).

فهذا المعنى من حفظه سبحانه يقتضي إحاطة علمه بأحوال العباد
كلها ظاهرها وباطنها، وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي
بأيدي الملائكة، كما يقتضي علمه بمقاديرها في كمالها ونقصها ومقادير
جزائها في الثواب والعقاب؛ ثم مجازاتهم عليها بفضلها وعدله.

والمعنى الثاني: من معنيي الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع
ما يكرهون. وإلى هذا أشار المؤلف بقوله: «وهو الكفيل بحفظهم من كل
أمرٍ عانٍ» أي مُشَقِّ مكرهه.

وحفظه لخلقه نوعان: عام وخاص.

فالعام: هو حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيها ويحفظ
بنيتها وإلهامها؛ بتدبير شؤونها والسعي فيما يصلحها، كلٌّ حسب خلقته،
كما قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، يعني هدى
كلَّ مخلوق إلى ما قدر له من ضروراته وحاجاته، وأعطاه من الوسائل
والآلات ما يتمكن معه من تحصيل ما كمله ومشربه ومنكحه والسعي في
أسباب ذلك، ولا شك أن هذا أمرٌ يشترك فيه البرُّ والفاجرُ بل الحيواناتُ
وغيرها، فهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الذي يحفظ
الخلائق بنعمه، وهو الذي وكل بالآدمي حفظه من الملائكة ﴿لَمْ مَعَقِبْتُمْ
بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

(١) «الزبر»: كُتِبَ الحفظه. «مستطر»: مسطور مكتوب في اللوح المحفوظ.

[الرعد: ١١] أي: يدفعون عنه من الضر والأذى ما لم يقدره الله مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه حفظاً زائداً على ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم ويزلزل يقينهم من الفتن والشبهات والشهوات؛ فيعافيهم منها، ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس؛ فينصرهم عليهم ويدفع كيدهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج ٣٨] وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، كما في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»^(١)،^(٢).

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة، باب (٥٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٣٠٧/١).

«احفظ الله»: اعرف حدوده وقف عندها.

«يحفظك»: يصونك ويحميك.

«تجاهك»: أمامك. وتجده تجاهك: أي تجده معك بالحفظ والتأييد

والنصرة والمعونة.

(٢) شرح القصيدة التوتية (ص ٩٠).

الرقيب، الشهيد

قال ابن القيم نظاماً:

وهو الرقيبُ على الخواطرِ واللوا حَظِّ كيف بالأفعال بالأركان؟!

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي شارحاً هذا البيت:

ومن أسمائه الحسنى (الرقيب)، وهو واسمه (الشهيد) مترادفان، كلاهما يدلُّ على حضوره مع خلقه، يسمع ما يتناجون به، ويرى ما يخوضون فيه، ويعلم حركات خواطرهم وهو اجس ضمائرهم وتقلُّب لواحظهم، لا يغيبُ عنه من أمرهم شيءٌ يقولونه أو يفعلونه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] ^(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيهِمْ وَلَا خِمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَهْمُهُمْ أَنِ مَا كَانُوا فَعَمَّ يَلْتَهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

وكقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ فَخَسَّمْهُ وَمَنْ أَرْبُّ إِلَهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

(١) «تكون في شأن»: في أمر هامٍ مُعْتَنَى به. «تفيضون فيه»: تشرعون وتخوضون فيه. «ما يعزب»: ما يبتعد وما يغيب. «مِثْقَالِ ذَرَّةٍ»: وزن أصغر نملة أو هبابة.

وفي الحديث الصحيح: «صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت»^(١).

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أجل أعمال القلوب هي التعمُّد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعمد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه^(٢).

وقول المؤلف رحمه الله: «كيف بالأفعال بالأركان» معناه أنه إذا كان الله عز وجل رقيباً على دقائق الخفيات، مُطلعاً على السرائر والنيات، كان من باب أولى شهيداً على الظواهر والجليات، وهي الأفعال التي تفعل بالأركان، أي: الجوارح^(٣).

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/٦٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وقال: تفرد به عثمان بن كثير، قلت - أي الهيثمي -: ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح، وذكره بلفظ: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» من حديث عبادة بن الصامت. ورواه الحكيم في (نوادير الأصول ص ٢٢٦) بلفظ: «إن أفضل إيمان العبد أن يعلم أن الله معه حيثما كان»، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢/١٧٢)، وأبو نعيم في (الحلية ٦/١٢٤) وقال: غريب من حديث عروة.

(٢) مصداقاً لقوله ﷺ: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(٣) شرح القصيدة النونية (ص ٨٩).

الحميد المجيد

وصف الله تعالى نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصيرُ مجيداً بأوصافه وأفعاله، فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً، بل هو المجيدُ الفَعَّالُ لما يريد.

والمجدُ في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير. وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكْتُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد، فالحمدُ والمجدُ على الإطلاق لله الحميد المجيد. فالحميدُ: الحبيبُ المستحقُّ لجميع صفات الكمال؛ والمجيد: العظيم الواسع القادر الغني، ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ ﴿المجيد﴾^(١) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه، وإذا كان عرشه مجيداً فهو سبحانه أحقُّ بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض

(١) في قوله تعالى: ﴿ذو العرش المجيد﴾ [البروج: ١٥].

الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرّجها على أحد الوجهين، إما على الجوار؛ وإما أن يكون صفة لربك، وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإنَّ الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فَوَصَفُهُ سبحانه بالمجد مطابقٌ لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحقُّ المخلوقات أن يوصف بذلك؛ لسعته وحسنه وبهاء منظره، وعلوِّ القدرِ والرتبة والذات. ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفادٌ من مجدِ خالقه ومبدعه. والسّموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة.

قال ابن عباس: السّموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس. فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه؟! فهو عظيم كريم مجيد.

وأما تكلف هذا المتكلف جرّه إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك^(١).

والحميد: فعيل من الحمد وهو بمعنى محمود، وأكثر ما يأتي فعيلاً في أسماءه تعالى بمعنى فاعل كسميع، وبصير، وعليم، وقدير، وعليّ، وحكيم، وحليم، وهو كثير. وكذلك فعول، كغفور وشكور وصبور.

وأما الودود ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى فاعل، وهو الذي يحبّ أنبياءه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين.

والثاني: أنه بمعنى مودود، وهو المحبوب الذي يستحقّ أن يحبّ

(١) التبيان (ص ٦٠).

الحب كله، وأن يكون أحبّ إلى العبد من سمعه وبصره ونفسه وجميع محبوباته.

وأما الحميد فلم يأتِ إلا بمعنى المحمود، وهو أبلغ من المحمود؛ فإنّ فعلاً إذا عدل به عن مفعول دلّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية الغريزية والخلق اللازم، كما إذا قلت: فلان ظريف أو شريف أو كريم، ولهذا يكون هذا البناء غالباً من فعل بوزن شُرِفَ. وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجاياء اللازمة ككَبُرَ وَصَغُرَ وَحَسُنَ وَلَطُفَ، ونحو ذلك^(١).

ولهذا كان حبيب أبلغ من محبوب؛ لأنّ المحبوب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يحبّ لأجلها، فهو حبيب في نفسه، وإن قدر أن غيره لا يحبه لعدم شعوره به أو لمانع منعه من حبه، وأما المحبوب فهو الذي تعلق به حب المحب، فصار محبوباً بحب الغير له. وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته تعلق به حب الغير أو لم يتعلق، وهكذا الحميد والمحمود.

فالحميد الذي له من الصّفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محموداً وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه، والمحمودُ مَنْ تعلق به حمّدُ الحامدين، وهكذا المجيد والممجد، والكبير والمكبر، والبصير والمعظم.

والحمد والمجد إليهما يرجعُ الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الشاء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تُثنِ عليه لم تكن حامداً له، وكذا من أثبت عليه لغرضٍ ما ولم تحبه لم تكن حامداً له حتى تكونَ مثنياً عليه

(١) ينظر: اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي (ص ٧٠) ومعاني الأبنية في العربية للسامرائي (ص ٦٣).

محبباً، وهذا الثناء والحبُّ تبع للأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإنَّ هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفاتُ أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتمَّ وأعظم.

واللَّهُ سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما، والإحسان كله له ومنه، فهو أحقُّ بكلِّ حمد، وبكلِّ حب من كلِّ جهة، فهو أهلُّ أن يُحبَّ لذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه وإحسانه ولكلِّ ما صدز منه سبحانه.

وأما المجد فهو مستلزمٌ للعظمة والسعة والجلال كما يدلُّ عليه موضوعه في اللغة، فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال، والحمد يدلُّ على صفات الإكرام، والله سبحانه ذو الجلال والإكرام، وهذا معنى قول العبد: «لا إله إلا الله والله أكبر»، فلا إله إلا الله دالٌّ على ألوهيته وتفرده فيها؛ فالوهيته تستلزم محبته التامة، و«الله أكبر» دالٌّ على مجده وعظمته، وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره.

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيراً كقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ بِرُكْنِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ لِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَنَا شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا وِثْرٌ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فأمر بحمده وتكبيره.

وقال تعالى: ﴿بِزَكَّ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقال: ﴿وَبِشَى وَجْهِ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وفي المسند وصحيح أبي حاتم وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ

أنه قال: «الظَّوَا ب: يا ذا الجلال والإكرام»^(١)، يعني: الزموها وتعلَّقوا بها.

فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد.

ونظير هذا قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَفُورٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] وقوله: ﴿وَاللَّهُ

قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

وهو كثير في القرآن.

وفي الحديث الصحيح حديث دعاء الكرب «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم»^(٢).

فذكر هذين الاسمين «الحميد المجيد» عقب الصلاة على النبي ﷺ

وعلى آله مطابق لقوله: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَرَكْنَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

ولما كانت الصَّلَاةُ على النبي ﷺ، وهي ثناء الله تعالى عليه، وتكريمه، والتثويه به، ورفع ذكره، وزيادة حبه، وتقريبه، كانت مشتملة على الحمد والمجد، فكان المصلي طلب من الله تعالى أن يزيد في حمده ومجده، فإن الصلاة عليه هي نوع حمد له وتمجيد، هذا حقيقتها، فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له وهما أسماء الحميد والمجيد.

(١) سبق تخريجه (ص ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٦) في الدعوات، باب: الدعاء عند الكرب، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: دعاء الكرب.

وهذا يعني أنّ الداعي يُشرع له أن يختم دعاءه باسم من الأسماء
الحسنى يُناسبُ لمطلوبه أو يفتح دعاءه به، وهذا من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال سليمان عليه السلام في دعائه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا
يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

وقال الخليل وابنه إسماعيل في دعائهما ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن
دُورِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:
١٢٨].

وكان النبي ﷺ يقول: «رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب
الغفور»^(١) مئة مرة في مجلسه.

وقال لعائشة رضي الله عنها وقد سألته: إن وافقت ليلة القدر ما أدعو
به؟ قال: «قولي اللهم إنك عفوٌ تحبُّ العفو فاعفُ عني»^(٢).

وقال للصدّيق رضي الله عنه وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في
صلاته: «قل: اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلاّ
أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣).

(١) رواه أبو داود (١٥١٦) في الوتر، باب: في الاستغفار، والترمذي (٣٤٣٤) في
الدعوات، باب: ما يقول إذا قام من المجلس، وقال: حديث حسن صحيح
غريب، وابن ماجه (٣٨١٤) في الأدب، باب: الاستغفار، وأحمد (٢١/٢)، ٦٧
و١٩١/٥، (٣٧١).

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٨٣٤) في الأذان، باب: الدعاء قبل السلام، ومسلم (٢٧٠٥) في
الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر.

وهذا كثير قد ذكرناه في كتاب: «الروح والنفس»^(١).

وما قاله الناس في قول المسيح: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم.

وقول الخليل: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

فلما كان المطلوب للرسول ﷺ حمد ومجد بصلاة الله عليه ختم هذا السؤال باسمي «الحميد والمجيد»، وأيضاً فإنه لما كان المطلوب للرسول حمداً ومجد، وكان ذلك حاصلًا له، ختم ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للرب بطريق الأولى. وكلّ كمال في العبد غير مستلزم للنقص فالرب أحقّ به.

وأيضاً فإنه لما طلب للرسول حمداً ومجداً بالصلاة عليه، وذلك يستلزمُ الثناء عليه، ختم هذا المطلوب بالثناء على مرسله بالحمد والمجد؛ ليكونَ هذا الدعاء متضمناً لطلب الحمد والمجد لرسول الله ﷺ والإخبار عن ثبوته للرب سبحانه وتعالى^(٢).

والحمد كلّهُ لله ربّ العالمين؛ فإنه المحمودُ على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمودُ على طاعات العبد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمودُ على خلق الأبرار والفتجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمودُ على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكلُّ ذرّة من ذرات الكون شاهدة بحمده،

(١) كتاب «الروح والنفس» من الكتب المفقودة للمؤلف.

(٢) جلاء الأفهام (ص ١٨٦).

ولهذا سَبَّحَ بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، مِلءَ السَّمَاءِ وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»^(١).

فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض، ويملاً ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده. وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله مبدع السموات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته وملء ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءاً بحمدك وإن لم يكن موجوداً.

ولكن يقال: المعنى الأول أقوى؛ لأن قوله: «مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» يقتضي أنه شيء يشاؤه، ما شاء كان، والمشية متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمل، لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه، فالمشية راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكون شيئاً موجوداً يملؤه حمده.

وأيضاً فإن قوله: «من شيء بعد» يقتضي أنه بعد ذلك من مخلوقاته ومن القائمة وما بعدها. ولو أريد تقدير خلقه لقليل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأن المقدر يكون مع المحقق.

(١) رواه مسلم (٤٧١) في الصلاة، باب: اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، والترمذي (٢٦٦) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل إذا رفع رأسه من الركوع، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٨٧٨) في إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب: ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع.

وأيضاً فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد، بل قال: ما شئت. والعبد قد حمد حمداً أخبر به، وإن ثنائه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاء بعد ذلك.

وأيضاً فقوله «وملء ما شئت من شيء بعد» يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك، وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وقد لا تتعلق.

وأيضاً فإذا قيل «ما شئت من شيء بعد ذلك» كان الحمد مائلاً لما هو موجود يشاؤه الرب دائماً، ولا ريب أنّ له الحمد دائماً في الأولى والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير الموجود فالمقدرات لا حدّ لها، وما من شيء منها إلاّ يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل «ملء ما لا يتناهى» فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلاّ موجوداً مقدراً، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها؛ فهذا كله مما يشاؤه بعد.

وأيضاً فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وإما ظاهرة في مخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه ألبتة، فالحمد لله يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمّن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مائلاً له لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة على جهة التمثيل: أي لو كان أجساماً لملأ السموات

والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأُ بها الأجسام، ولا تملأُ الأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى المالىء والمملوء، فإذا قيل: امتلأت الإناء ماءً وامتلأت الجفنة^(١) طعاماً فهذا الامتلاء نوع. وإذا قيل: امتلأت الدار رجالاً وامتلأت المدينة خيلاً ورجالاً فهذا نوع آخر. وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطوراً فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامعُ الناسِ حمداً أو ذمّاً لفلان فهذا نوع آخر.

وفي أثر معروف: «أهل الجنة من امتلأت مسامعُه من ثناءِ الناسِ عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعُه من ذمِّ الناسِ له»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود: كيف^(٣) ملىءَ علماً. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا.

وكان يقال: ملأ ابنُ أبي الدنيا الدنيا علماً.

ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق، وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلاً قلبه رغباً.

وهذا أكثر من أن تستوعب شواهدة، وهو حقيقة في بابه.

وجعل الملىء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصةً تحكُّم باطل ودعوى لادليلٍ عليها ألبتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز

(١) «الجفنة»: القصعة.

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٤) في الزهد، باب: الثناء الحسن، بلفظ: «أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيراً، وهو يسمع، وأهل النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شراً، وهو يسمع».

(٣) قال ابن الأثير في النهاية (٢٠٥/٤): وهو تصغير تعظيم للكُتُفِ.

والاشتراك، وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصودُ أنّ الربَّ أسماؤه كلّها حسنى، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلّها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزّه عن الشبيه والمثال، ومنزّه عما يضادّ صفات كماله؛ فمنزّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنّة والنوم والسهو والغفلة المضادّ للقيومية.

وموصوف بالعلم منزّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزّه عن ضدها من العجز واللغوب^(١) والإعياء، موصوف بالعدل منزّه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزّه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزّه عن أضدادهما، موصوف بالغنى التام منزّه عما يضاده بوجه من الوجوه.

ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كلّه واجب لذاته، فلا يكون إلّا محموداً كما لا يكون إلّا إلهاً ورباً وقادراً.

فإذا قيل «الحمد كله لله» فهذا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كلّ شيء، وهو ما يحمد به رسله أنبياءه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى بل هو المحمود بالقصد الأول، فهو المحمود أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علّم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه.

(١) «اللغوب»: التعب.

وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ،
وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ وَأَعُوذُ
بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ»^(١).

وهو سبحانه له الملك، وقد أتى من الملك بعض خلقه، وله
الحمد، وقد أتى من الحمد ما شاء. وكما أن ملك المخلوق داخل في
ملكه، فحمده أيضاً داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء،
مما دق أو جلّ إلاّ والله المحمود عليه بالذات والألوية أيضاً.

وإذا قال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ» فالمراد به أنت المستحق لكل حمد،
ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال: «لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ» أي: الحمد التام الكامل
هذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة.

والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعاً، فله عموم الحمد وكماله،
وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء
أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلاّ
هو، وليس الملك التام الكامل إلاّ له، وأتباع الرسل يشبّون له كمال
الملك وكمال الحمد فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربّه ومليكه،
لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيتته شيء ألبته، فله الملك كله.

والقدرية المجوسية يخرجون من ملكه أفعال العباد، ويخرجون سائر
حركات الملائكة والجن والإنس عن ملكه.

وأتباع الرسل يجعلون ذلك كله داخلياً في ملكه وقدرته، ويشبّون

(١) رواه الطيالسي في مسنده برقم (١٥٦٩) بلفظ: «اللهم إني أسألك من الخير كله
ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم».
وروى ابن ماجه (٣٨٤٦) نحوه، والحاكم (١/٥٢٢).

كمال الحمد أيضاً، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كمال الحمد أيضاً، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كل ما خلقه ويخلقه، لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل.

وأما نفاة الحكمة والأسباب من مثبتي القدر فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمداً كما لا يثبتون له الحكمة، فإن الحمد من لوازم الحكمة، والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئاً لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله، فأما من لا يفعل شيئاً لشيء ألبتة فلا يتصور في حقه الحكمة. وهؤلاء يقولون: ليس في أفعاله وأحكامه لام التعليل^(١)، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فإنما اقترنت بها اقتراناً عادياً، لا أن هذا كان لأجل هذا، ولا نشأ السبب لأجل المسبب، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة، إن هو إلا محض المشيئة وصرف الإرادة التي ترجح مثلاً على مثل، بل لا مرجح أصلاً، وليس عندهم في الأجسام وطبائع وقوى تكون أسباباً لحركاتها، ولا في العين قوة امتازت بها على الرجل يبصر بها، ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر، بل خصّ سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصاً لمثل على مثل بلا سبب أصلاً ولا حكمة، فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد، كما لم يثبت له أولئك كمال الملك، وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الأمة^(٢).

والملك والحمد في حقه متلازمان، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما

(١) ينظر: كتاب «شفاء العليل» لابن القيم، الفصل الهام الذي عقده للحديث عن لام

التعليل والحكمة في فعل رب العالمين عز وجل (ص ١٩١ - ٢٠٠).

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٠).

يستحيل خروجُ شيءٍ من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبته عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده، فهو محمودٌ على كلِّ ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح، ويجمعهما التبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمدُ أوسع الصفات وأعمّ المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته وتفصيل الأمر والنهي واسعة جداً؛ لأنَّ جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووجد بحمده وظهر بحمده، وكان الغاية هي حمده روح كلِّ شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر، من الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته، وإقرار العبد بأن للعالم إلهاً حياً جامعاً لكل صفة كمال، واسم حسن، وثناءً جميل، وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة والمشيتة النافذة والعلم المحيط والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا يخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات؛ التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر من جميع البريات.

ومن أعظم نعمه علينا، وما استوجب حمد عباده له، أن يجعلنا عبيداً له خاصة، ولم يجعلنا ربنا منقسمين بين شركاء متشاكسين^(١)، ولم يجعلنا عبيداً لآله نحتته الأفكار، لا يسمع أصواتنا ولا يبصر أفعالنا ولا يعلم أحوالنا ولا يملك لعابديه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا تكلم قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، ولا تُرفع إليه الأيدي ولا تخرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا متصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا محاذياً له ولا مبايناً، ولا هو مستور على عرشه ولا هو فوق عباده^(٢).

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، حمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرّده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليقُ بكماله، من اتّخاذ الولد والشريك وموالاته أحدٍ من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوّه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلويّ والسفليّ، ونبّه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه.

فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرّقها أخرى؛ ليتعرّف إلى عباده ويُعرفهم كيف يحمّدونه وكيف يشنون عليه، وليتحبّب إليهم بذلك ويحبّبهم إذا عرفوه وأحبّوه وحمّدوه. قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [الزمر: ٢٩].

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٣٠).

الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] ^(١).

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ^(٢).

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾ [١] قِسْمًا

يَسْتُزِرُّ بِهَا سَاطِدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١ - ٢] ^(٣).

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أجنَحَةٍ

مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] ^(٤).

(١) «رب العالمين»: مربِّيهم ومالكهم ومُدبِّرُ أمورهم.

«يوم الدين»: يوم الجزاء والحساب.

(٢) «جعل»: أنشأ وأبدع.

«يعدلون»: يُسَوِّون به غيره في العبادة.

(٣) «لم يجعل له عوجاً»: اختلافاً ولا اختلافاً ولا انحرافاً عن الحق ولا خروجاً عن الحكمة.

«قيماً»: مُستقيماً معتدلاً، أو بمصالح العباد.

«بأساً»: عذاباً أجلاً أو عاجلاً.

(٤) «فاطر»: مبدع ومخترع وخالق.

«يزيد في الخلق ما يشاء»: قال الزمخشري في الكشاف (٣/٥٩٦): «الآية

مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامته، واعتدال صورته، وتمام في

الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في

القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأن =

وقال: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ [غافر: ٦٥].

وقال: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ [الروم: ١٧ - ١٨] ^(١).

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بشوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهاناته: ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]، وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده،

= في مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.
 [حصافة]: إحكام. [ذلاقة]: حدة وطلاقة. [لباقة]: حذق.
 (١) «حين تُظهِرون»: تَدْخُلُونَ في وقت الظهيرة.

وفي هاتين الآيتين تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وعند الصباح. انظر: (تفسير ابن كثير ٤٣٨/٣).

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم لِمَ سَمَى اللهُ إبراهيمَ خليله الذي وفي؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾» رواه أحمد.

وقال ﷺ: «من قال حين يصبح: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ * وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ الآية، بكمالها أدرك ما فاتته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته من ليلته». رواه أبو داود.

فقال عن أهل الجنة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و: ﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وقال عن أهل النار: ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون ﴾ [٧٤] ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا ها تورا بؤهنكم فمكلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [القصص: ٧٤ - ٧٥]^(١).

وقال تعالى: ﴿ فَاعترفوا بذنبيهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ [الملك:

[١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مُفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عُوقبوا بأفعالهم؛ وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية.

وتفصيل هذه الحكمة مما لا مسيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكلُّ صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسييح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل، على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يُوصفُ به ويُذكر به ويُخبر عنه به فهو محامد له وثناءً وتسييح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشني به عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما

(١) «يفترون»: يختلقونه من الباطل في الدنيا.

ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ورفيع مجده وعلو جدّه^(١). فهذا تنبيهٌ على أحد نوعي حمده، وهو حمدُ الصّفات والأسماء.

والنوع الثاني حمدُ النعم والآلاء، وهذا مشهودٌ للخليفة برّها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها.

ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى مَنْ أرادَه بأحسن الألفاظ، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصّته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعتة عنهم أحسنّ الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحجّب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وسّمّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، ودّكرهم قبل أن يذكره، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحجّب إليهم بنعمه مع غناه، وتبغّضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه.

ومع هذا كلّه فاتخذ لهم داراً، وأعدّ لهم فيها من كلّ ما تشتهيهِ الأنفُس وتلذّ الأعين، وملاها من جميع الخيرات، وأودعها من النعم والحبرة^(٢) والسرور والبهجة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ

(١) «علو جدّه»: أي: جلاله، وعظمته.

(٢) «الحبرة»: حبرٌ حَبْرًا: ابتهج ونضّر. فهو حَبِرٌ، وهي حَبْرَةٌ.

ثم أرسل إليهم الرُّسُلَ يدعونهم إليها، ثم يَسَّرَ لهم الأسبابَ الَّتِي تُوصِلُهُمْ إِلَيْهَا وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا، وَرَضِيَ مِنْهُمْ بِالْيَسِيرِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ جَدًّا بِالْإِضَافَةِ إِلَى بَقَاءِ دَارِ النَّعِيمِ، وَضَمَّنَ لَهُمْ إِنْ أَحْسَنُوا أَنْ يُشْبِهُهُمْ بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا، وَإِنْ أَسَاءُوا وَاسْتَغْفَرُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يَمْحُوَ مَا جَنَوْهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ بِمَا يَفْعَلُونَهُ بَعْدَهَا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَذَكَرَهُمْ بِآلَاتِهِ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِأَسْمَائِهِ، وَأَمْرَهُمْ بِمَا أَمْرَهُمْ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُمْ وَإِحْسَانًا لَا حَاجَةَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ حِمَايَةً وَصِيَانَةً لَهُمْ لَا بُخْلًا مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ، وَخَاطَبَهُمْ بِالطَّفِ الْخَطَابِ وَأَحْلَاهُ، وَنَصَحَهُمْ بِأَحْسَنِ النَّصَائِحِ، وَوَضَّاهُمْ بِأَكْمَلِ الْوَصَايَا، وَأَمْرَهُمْ بِأَشْرَفِ الْخِصَالِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ أَقْبَحِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَصَرَّفَ لَهُمُ الْآيَاتِ، وَضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ، وَوَسَّعَ لَهُمْ طَرِيقَ الْعِلْمِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَفَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الْهُدَايَةِ، وَعَرَّفَهُمُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُدْنِيهِمْ مِنْ رِضَاهِ وَتُبْعِدُهُمْ عَنْ غَضَبِهِ، وَيَخَاطَبُهُمْ بِالطَّفِ الْخَطَابِ وَيُسَمِّيهِمْ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿قُلْ يَعْجِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فَيَخَاطَبُهُمْ بِخَطَابِ الْوَدَادِ وَالْمَحَبَةِ وَالتَّلَطُّفِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) «أسرفوا»: تجاوزوا الحدَّ في المعاصي.

الْتَمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ﴿البقرة: ٢١ - ٢٢﴾^(١).

﴿يَأْتِيَا النَّاسَ أَدْكُرُوا يَمَنَّتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٣]^(٢).

﴿يَأْتِيَا النَّاسَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥]^(٣).

﴿يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦ - ٧]^(٤).

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا يَمَنَّتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَنَقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣]^(٥).

(١) «الأرض فراشاً»: بساطاً للاستقرار عليها.

«السماء بناء»: سقفاً مرفوعاً.

«أنداداً»: أمثالاً من الأوثان تعبدونها.

(٢) «فأنى تؤفكون»: فكيف تُضرفون عن توحيدهِ؟

(٣) «فلا تغرركم»: فلا تخدعنكم بالزخارف والملاذات.

«الغرور»: ما يغرُّ ويخدع من شيطانٍ وغيره.

(٤) «ما غرَّك بربك؟»: ما خدعك وجرَّك على عصيانه؟

«فسواك»: جعل أعضائك سوية سليمة.

«فعدلك»: جعلك معتدلاً متناسب الخلق.

(٥) «حق تقاته»: حق تقواه، أي اتقاء حقاً واجباً.

«اعتصموا بحبل الله»: تمسكوا بعهدهِ ودينهِ، أو بكتابه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَدِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٨] (١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْتُمْ فِيهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَنَّمَ فِي سَبِيلِ وَابْنَعَلَّ مَرَضَانِ لِيُشْرُونَ فِيهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَكْرَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١] (٢)،

= «شفا حفرة»: طَرَفُ حَفْرَةٍ.

(١) «بطانة»: خواصٌّ يستبطنون أمركم.

«لا يألونكم خبالاً»: لا يَقْصُرُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ.

«ودُّوا ما عنتم»: أَحْبَبُوا مَشَقَّتَكُمْ الشَّدِيدَةَ.

قال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٨ - ١٧٩):

«نهى اللُّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ دُخْلَاءَ وَوُلَجَاءَ، يَفَاوِضُونَهُمْ فِي الْآرَاءِ، وَيَسْتَنْدُونَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ... وَقَدْ انْقَلَبَتِ الْأَحْوَالُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ بِاتِّخَاذِ أَهْلِ الْكِتَابِ كِتَابَةَ وَأَمْنَاءَ، وَتَسْوَدُوا بِذَلِكَ عِنْدَ الْجَهْلَةِ الْأَغْيَاءِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ.»

(٢) «أولياء»: أَعْوَانًا تَوَادُّونَهُمْ وَتُنَاصِحُونَهُمْ.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم، فعن علي رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن فيها ظعينة معها كتاب»، فقلنا لها: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين ممن بمكة، يخبر أمر النبي ﷺ، فقال: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: لا تعجل علي، إني كنتُ امرأةً ملصقةً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قراباتهم، ولم يكن لي بمكة قرابة، فأحبيتُ إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً، والله ما فعلته =

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ فَسَّاكِينًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤ - ٢٦] (١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعْتُمْوهَا لَهُ آيَاتُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤] (٢).

= شاكاً في ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدق». فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم». ونزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...﴾. وانظر: (أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٩).

(١) «لما يحييكم»: لما يصلحكم.

«يحول بين المرء وقلبه»: قال ابن عباس: يحول بين المرء وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.

«فتنة»: أي اختباراً ومحنةً وابتلاء.

«يتخطفكم الناس»: يستلبوكم ويصطلموكم بسرعة.

(٢) «ما قدروا الله»: ما عظموه، أو ما عرفوه.

قال ابن القيم في كتابه (الأمثال في القرآن ص ٢٤٧ - ٢٤٨): «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب؛ ولو اجتمعوا كلهم لخلقته، فكيف ما هو أكبر منه؟!

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَسَتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠] (١).

فَتَحَّتْ هَذَا الْخَطَابُ: إِنِّي عَادَيْتَ إِبْلِيسَ وَطَرَدْتَهُ مِنْ سَمَاوِي وَيَاعِدْتَهُ مِنْ قَرِيبِي إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَيِّكُمْ آدَمَ، ثُمَّ أَنْتُمْ يَا بَنِيهِ تَوَالُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ مِنْ دُونِي وَهُمْ أَعْدَاءُ لَكُمْ!.

فَلِيَتَأَمَّلِ اللَّيْبِيُّ مَوَاقِعَ هَذَا الْخَطَابِ وَشِدَّةَ لَصُوقِهِ بِالْقُلُوبِ وَالتَّبَاسِهِ بِالْأَرْوَاحِ، وَأَكْثَرَ الْقُرْآنِ جَاءَ عَلَى هَذَا النَّمْطِ مِنْ خَطَابِهِ لِعِبَادِهِ بِالتَّوَدُّدِ وَالتَّحْنَنِ وَالتَّلَطُّفِ وَالتَّنصِيحِ الْبَالِغَةِ، وَأَعْلَمَ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى لَهُمْ إِلَّا أَكْرَمَ الْوَسَائِلِ وَأَفْضَلَ الْمَنَازِلِ وَأَجَلَّ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] (٢).

ولا يقدرُونَ على الانتصار من الذباب، وإذا سلبهم الذباب شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستقذونه منه، فلا هم قادرُونَ على خَلْقِ الذباب الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما يسلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقلُ عبادتها من دون الله تعالى!؟.

(١) «اسجدوا»: السجود: معناه في كلام العرب التذلل والخضوع.

قال القرطبي في تفسيره (٢٩٢/١):

﴿فإن قيل: فإذا لم يكن آدم أفضل من الملائكة فما الحكمة في الأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لما استعظموا بتسيبهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهام استغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيروا آدم واستصغروه، ولم يعرفوا خصائص الصنع به، فأمرُوا بالسجود له تكريماً.﴾
«فسجدوا»: أي امتثلوا ما أمروا به.

(٢) «وإن تشكروا»: الشكر في اللغة: الظهور. والشكر: الثناء على المحسن بما =

وقال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] (١).

وكذلك اسمه الحميد، وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده يُوجب ألا ينسب إليه شر ولا سوء ولا نقص، لا في أسمائه ولا في أفعاله ولا في صفاته، فأسماءه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا يجعل منه عدل وحكمة وصواب، فجعله فاعلاً خيراً والمفعول شر قبيح، فهو سبحانه بهذا الجعل قد وضع الشيء موضعه لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها، فهو خير وحكمة ومصلحة، وإن كان وقوعه من العبد عيباً ونقصاً وشراً، وهذا أمرٌ معقول في الشاهد، فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء والحجر المكسور واللينة الناقصة فوضع ذلك في موضع يليق به ويناسبه كان ذلك منه عدلاً وصواباً يُمدحُ به، وإن كان في المحل عوج ونقص وعيب يذم به المحل، ومن وضع الخبائث في موضعها ومحلها اللائق بها كان ذلك حكمة وعدلاً وصواباً، وإنما السفه والظلم أن يضعها

= أولاه من المعروف. وللعلماء أقوال كثيرة في الشكر منها: ما قاله سهل بن عبد الله: «الشكر: الاجتهادُ في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية».

وقال الشبلي: الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسماوات.

انظر: (تفسير القرطبي ١/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

(١) طريق الهجرتين (ص ١٦٩).

في غير موضعها، فمن وضع العمامة على الرأس، والنعل في الرُّجُل،
والكحل في العين، والزبالة في الكناسة، فقد وضع الشيء موضعه، ولم
يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلّهما^(١).

(١) شفاء العليل (ص ١٨٠).

الودود والشكور

الودود: المتوَدِّدُ إلى عباده بنعمه، الذي يودُّ مَنْ تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب^(١)، والتحقيق أنَّ اللفظ يدلُّ على الأمرين، على كونه وادًّا لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم. فهو الحبيبُ المحبُّ لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَيْفَ رَجِيمٍ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما أظف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحبُّ التَّوَّابِينَ^(٢)، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان^(٣).

هو الودودُ يحبُّهم ويحبُّه	أحبُّه والفضلُ للمَّانِ
وهو الذي جعلَ المحبَّةَ في قلوبهم	بهم وجزأهم بحبِّ ثمان
هذا هو الإحسانُ حقاً لأمعاً	وضهً ولا توقع الشُّكران ^(٤)

(١) معجم غريب القرآن ص (٢٢٢).

(٢) ﴿إن الله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢].

(٣) التبيان ص (٥٩).

(٤) «الشكران»: مصدر للفعل شكر، والشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد. والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل، قال الشاعر:
شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضي=

لكن يحبُّ شكورهم، وشكورهم لا احتياج منه للشكران^(١)
وهو الشكور فلن يضيع سعيهم لكن يضاعفه بلا حُساب^(٢)

وهذا تفسير لاسميه الكريمين (الودود والشكور)، وقد ورد كل منهما في الكتاب العزيز، فالودود ورد مرة مقترناً باسمه الرحيم في قوله تعالى من سورة هود على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُحْسِبُ أَنَّ رَبِّي بِدَوْدٍ وَآلِهِ﴾ [هود: ٩٠].

وورد مرة أخرى مقترناً باسمه الغفور في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

والودود مأخوذ من الودّ بضم الواو بمعنى خالص المحبة، وهو إما من فعول بمعنى فاعل، فهو سبحانه الوادّ أي المحبّ لأنبيائه وملائكته وعباده الصالحين، وإما من فعول بمعنى مفعول، فهو سبحانه المودود المحبوب لهم، بل لا شيء أحبّ إليهم ولا في كفيّتها، ولا في متعلقاتها، وهذا هو الواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، وغالبة لها، ويتعيّن أن تكون بقيّة المحابّ تابعة لها^(٣).

يقول العلامة الشيخ السعدي رحمه الله:

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو تعالى الذي أحبّ عبده، فجعل المحبة في قلبه، ثم لما

= أي: ليس كل من أوليته نعمة يشكرك عليها، وهو معنى بيت ابن القيم.

(١) شكره لعباده: مغفرته لهم.

(٢) شرح القصيدة النونية ص (٩٦).

(٣) ينظر جلاء الأفهام ص (١٨٦).

أحبّه العبدُ بتوفيقه جازاه الله بحبِّ آخر، فهذا هو الإحسانُ المحضُ على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب. ليس المقصود منها المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحةُ كلها عائدةٌ إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينمّيها ويقوّيها حتى وصلتْ في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميعُ المحابِّ وتسليهم عن الأحباب، وتهوّن عليهم المصائب، وتلذّذ لهم مشقةَ الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات؛ التي أعلاها محبة الله، والفوز برضاه، والأنس بقربه^(١).

* * *

(١) شرح القصيدة النونية ص (٩٦).

الحي القيوم

معنى اسمه «القيوم»: هو الذي قام بنفسه، فلم يحتج إلى أحد، وقام كل شيء به، فكل ما سواه محتاج إليه بالذات، وليست حاجته إليه معللة بحدوث - كما يقول المتكلمون - ولا بإمكان، كما يقول الفلاسفة المشاؤون، بل حاجته إليه ذاتية، وما بالذات لا يعلل.

وإنَّ الله عزَّ وجلَّ له مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل شيء، وقائم على كل نفس، وأنه تعالى هو القائم بنفسه، المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

فهو (الحي القيوم) الذي لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم، مالك السموات والأرض؛ الذي لكمال ملكه لا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، العالم بكل شيء، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم ديب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها الملك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب^(١).

ويعلم من اسم الحي القيوم أن الحياة مستلزمة لجميع صفات

(١) مدارج السالكين (١١١/٢).

الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يصادف نفي كمال الحياة، وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال.

وأما (القيوم) فهو مُتَضَمِّن كمال غناه وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته. فانظّم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة، فكانَّ المستغيث بهما مستغيثٌ بكلِّ اسم من أسماء الرب تعالى، وبكل صفة من صفاته، فما أَوْلَى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإنالة الطلبات.

والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته، كما أن المستعيذ بعزته في قوله: «أعوذ بعزتك»^(١) مستعيذٌ بعزته التي هي صفته، لا بعزته التي خلقها يُعزُّ بها عباده المؤمنين.

وهذا كله يقرّر قول أهل السنة: إن قول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»^(٢) يدلُّ على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة؛ فإنه لا يُستعاذ بمخلوق.

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣) في التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وهو العزيز الحكيم﴾، وتعليقاً (٥٤٥/١١)، ومسلم (٢٧١٧) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شرِّ ما عمل، ومن شرِّ ما لم يعمل.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء، باب: في التعوذ من سوء القضاء، ومالك في الموطأ (٩٧٨/٢)، والترمذي (٣٤٣٧) في الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعتها عموم تعلقها بكل شيء، كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم^(١).
قال ابن القيم نظاماً:

وهو الحيُّ فليس يفضحُ عبده عند التَّجَاهِرِ مِنْهُ بِالْعِصْيَانِ
لكنَّه يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ فهو السُّتِيرُ وصاحبُ الغفران

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في التعليق على هذين البيتين:
ورد في السنة وصفه تعالى بالحياء، كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ يَسْتَحِي مِنْ عِبْدِهِ إِذَا مَدَّ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٢).

وكقوله عليه السلام في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه:
«أما أحدهم فأقبل فأقبلَ اللهُ عليه، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا اللهُ عز وجل منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض اللهُ عز وجل عنه»^(٣).

وحياؤه تعالى وصفٌ يليقُ به، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعترى الشخص عند خوف ما يُعَاب أو يُذَم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه. فالعبدُ

(١) بدائع الفوائد (٢/١٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨) في الصلاة، باب: الدعاء، والترمذي (٣٥٦٦) في الدعوات، باب (١٠٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٣٨٦٥) في الدعاء، باب: رفع اليدين في الدعاء، والحاكم (١/٤٩٧).

(٣) رواه البخاري (٦٦) في العلم، باب: من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومسلم (٢١٧٦) في السلام، باب: من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها، وإلا وراءهم.

يجاهره بالمعصية، مع أنه أفقر شيء إليه، وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه على معصيته، ولكنَّ الرَّبَّ سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئوه له من أسباب الستر، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إن الله عز وجل يُدني المؤمنَ فيضعُ عليه كَنَفَهُ، ثم يسأله فيما بينه وبينه: ألم تفعل كذا يوم كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك قال له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشبهة في الإسلام أن يُعذِّبه، ويستحي ممن يدعوه ويمدِّ إليه يديه أن يردهما خاليتين، وهو من أجل أنه حيي سِتِير يحبُّ أهل الحياء والستر من عباده، فمن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة.

وإن من أمقت الناس عنده من بات على معصية والله يستره، ثم يصبح فيكشف ستر الله عليه. وقد توعد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة^(٢)، وفي الحديث: «كُلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرين»^(٣)،^(٤).



(١) رواه البخاري (٦٠٧٠) في الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٧٦٨) في التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ [النور: ١٩].

(٣) رواه البخاري (٦٠٦٩) في الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ومسلم (٢٩٩٠) في الزهد والرقائق، باب: النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.

(٤) طريق الهجرتين ص (٦٧).

الواحد الأحد

إنَّ مشهَدَ الإلهية هو مشهَدُ الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادةُ أن لا إلهَ إلا هو، وأن إلهية ما سواه باطلٌ ومحال، كما أن ربوبية ما سواه كذلك، فلا أحدٌ سواه يستحقُّ أن يُؤلَّه ويُعبَد، ويُصلَّى له ويسجد، ويستحقُّ نهاية الحب مع نهاية الذلِّ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاعُ وحده على الحقيقة، والمألوه لغيره عذاب لصاحبها، وكلٌّ غني لغيره فقر وضلال، وكلٌّ عزٌّ بغيره ذلٌّ وصغار، وكلٌّ تكثُرٌ بغيره قلةٌ وفاقة.

فكما استحال أن يكونَ للخلق ربٌّ غيرُهُ فكذلك استحال أن يكونَ لهم إلهٌ غيرُهُ، فهو الذي انتهت إليه الرغباتُ، وتوجَّهتْ نحوه الطلباتُ.

ويستحيل أن يكونَ معه إلهٌ آخر؛ فإنَّ الإلهَ على حقيقته هو الغنيُّ الصَّمَدُ ولا حاجةَ به إلى أحد، وقيام كلِّ شيء به وليس قيامه بغيره، ومن المحال أن يحصلَ في الوجود اثنان كذلك، ولو كان في الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد، واختلَّ أعظم اختلال، كما يستحيل أن يكونَ له فاعلان متساويان كلٌّ منهما مستقلٌّ بالفعل، فإنَّ استقلالهما يُنافي استقلالهما، واستقلال أحدهما يمنعُ ربوبية الآخر، فتوحيدُ الربوبية أعظم دليلٍ على توحيد الإلهية.

وكذلك وقع الاحتجاجُ به في القرآن أكثر مما وقع بغيره؛ لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية.

وكذلك عبَادُ الأصنام يقرّون به وينكرون توحيد الإلهية، ويقولون:

﴿ أَجْمَلَ الْأَلْهَةِ إِلَهًا وَجَدًا ﴾ [ص: ٥] مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما، وأنه المنفرد بملك ذلك كله، فأرسل الله تعالى يذكر بما في فطرهم الإقرار به من توحيده وحده لا شريك له، وأنهم لو رجعوا إلى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات، وحظُّ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات^(١).

وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهاً حقاً؛ إذ الإله الحق لا شريك له ولا سمي له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها؛ إذ صلاحها بتأله الإله الحق كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

والله واحد لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يشركه في ذرة من ذرات ملكه، أو يخلفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائله، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب كما يكون بين الرعايا وبين الملوك، ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود وفسد العالم بأسره ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولو كان معه آلهة

(١) طريق الهجرتين (ص ٨٧ - ٨٨).

أخرى كما يقوله أعداؤه المبطلون، لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال، ولا يصلح عليه وجود.

إذا عرف هذا فاعلم أنّ حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يُشركُ به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكّل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتّعظيم والسجود والتقرب، أعظمُ من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تُقاس به؛ فإنّ حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئنُّ في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحةٌ إليه كدحاً فملاقيته، ولا بُدُّ لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبّتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها. ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقلُ من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثم يُعذّب، ولا بُدُّ، في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذّ، بل قد يؤذيه اتّصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملاسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يُؤثر ذلك لما له في حكّها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حكّ الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجّة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود أن إله العبد الذي لا بُدُّ له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كلّ ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي

فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة، لهذا قال إمام الحنفاء ﴿لَا أُحِبُّ
الْأَفْلَاحَ﴾ [الأنعام: ٧٦]^(١) والله أعلم .

(١) طريق الهجرتين (ص ١١٠ - ١١١).

الجمعة

لَمَّا كَانَ سُؤْلُ اللَّهِ الْهُدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ أَجَلَ الْمَطَالِبِ، وَنَيْلُهُ أَشْرَفَ الْمَوَاقِبِ؛ عَلَّمَ اللَّهُ عِبَادَهُ كَيْفِيَةَ سُؤَالِهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْدَهُ وَالشُّنَاءَ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عِبُودِيَّتَهُمْ وَتَوْحِيدَهُمْ. فَهَاتَانِ وَسِيلَتَانِ إِلَى مَطْلُوبِهِمْ: تَوْسُلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَوْسُلٌ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ. وَهَاتَانِ الْوَسِيلَتَانِ لَا يَكَادُ يَرُدُّ مَعَهُمَا الدُّعَاءَ. وَيؤَيِّدُهُمَا الْوَسِيلَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ فِي حَدِيثِي الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ لِلَّذِينَ رَوَاهُمَا ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «والذي نفسي بيده! لقد سألت الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى» قال الترمذي: حديث صحيح^(١).

فهذا تَوْسُلٌ إِلَى اللَّهِ بِتَوْحِيدِهِ، وَشَهَادَةِ الدَّاعِي لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَثُبُوتِ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِاسْمِ «الصمد» وهو كما قال ابن عباس: العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، وفي رواية عنه: هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٨٨٨)، وأحمد (٣٦٠/٥)، والترمذي (٣٤٧٥) في الدعوات، باب: جامع الدعوات عن النبي ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤده^(١).
وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله
وأقواله^(٢).

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠٨/١)، وابن جرير في تفسيره
(٣٤٦/٣٠).

(٢) المصدران السابقان.

الغني، الكريم

الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسنٌ إلى عبده لا لدفع مضرّة، بل رحمةً وإحساناً، وجوداً محضاً؛ فإنه رحيمٌ لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غنيٌّ لذاته، قادر لذاته، حيٌّ لذاته، لإحسانه وجوده وبرّه ورحمته من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصوّر أن يحسنوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعباد أن يحبّوه ويعظّموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرّة، وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به، فهو في الحقيقة وليّ هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم، ومع هذا فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من محبته سواء أحبّوه لجماله الباطن أو الظاهر؛ فإذا أحبّوا الأنبياء والأولياء فطلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك، وكذلك من أحب إنساناً لشجاعته أو رئاسته أو جماله أو كرمه؛ فهو يحبُّ أن ينالَ حظّه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبّ ذلك، وإن جلبوا له منفعة أو دفعوا عنه مضرّة - كمرض وعدو - ولو بالدعاء، فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العملُ لله، فأجنادُ الملوك وعبيد الممالك، وأجراءُ المستأجر، وأعوان الرئيس، كلّهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وهذب من جهة أخرى فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيه طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه، إذ قسم بينهم معيشتهم في

الحياة الدنيا^(١) ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً
سخرياً^(٢).

-
- (١) إشارة إلى الآية (٣١) سورة الزخرف: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا
بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.
(٢) طريق الهجرتين ص (٨٧ - ٨٨).

الصَّبْرُ

أما الصَّبْرُ فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبرُّ على أذى سمعه من الله عز وجل، يَدْعُونَ له ولدًا وهو يُعافيهم ويرزُقهم»^(١).

وفي أسمائه الحسنی (الصبور)، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصَّابِرِ والصَّبَّارِ. وصبره تعالى يفارق صبرَ المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها: أنه عن قدرة تامة.

ومنها: أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث.

ومنها: أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما.

وظهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم.

والفرق بين الصبر والحلم؛ أنَّ الصَّبْرَ ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر؛ ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع، ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا

(١) رواه البخاري (٧٣٧٨) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، ومسلم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: لا أحدٌ أصبرُّ على أذى من الله عز وجل.

﴿٥١﴾ [الأحزاب: ٥١]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وفي أثر «إِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حَلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ. وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ»^(١).

فإنَّ المخلوقَ يحلمُ عن جهلٍ، ويعفو عن عجزٍ، والرَّبُّ تعالى يحلمُ مع كمالِ علمه، ويعفو مع تمامِ قدرته، وما أضيفَ شيءٌ إلى شيءٍ أزينُ من حلمٍ إلى علمٍ، ومن عفوٍ إلى اقتدارٍ، ولهذا كان في دعاءِ الكربِ وصفه سبحانه بالحلمِ مع العظمة، وكونه حلماً من لوازمِ ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلِّقٌ بكفرِ العبادِ وشركهم ومسبِّتهم له سبحانه، وأنواعِ معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كلُّه إلى تعجيلِ العقوبة، بل يصبرُ على عبده، ويمهله، ويستصلحه، ويرفقُ به، ويحلمُ عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضعٌ للصنيعة، ولا يصلحُ على الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيبُ إلى ربه ويدخلُ عليه، لا من بابِ الإحسانِ والنعمِ ولا من بابِ البلاءِ والنقمِ، أخذه أخذٌ عزيزٌ مقتدرٌ؛ بعد غايةِ الأعذارِ إليه، وبذلِ النصيحةِ له، ودعائه إليه من كلِّ بابٍ. وهذا كلُّه من موجباتِ صفةِ حلمه، وهي صفةٌ ذاتيةٌ له لا تزول.

وأما الصَّبْرُ فإذا زال متعلِّقه كان كسائرِ الأفعالِ التي توجد بوجودِ الحكمةِ وتزول بزوالها؛ فتأمله فإنه فرقٌ لطيفٌ ما عثرتِ الحدائقُ بعشره،

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٣٦٤) بلفظ: «حملة العرش يتجاوبون بصوت حسن رخيم، يقول الأربعة: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، ويقول الأربعة الآخرون: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك». وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٧٤/٧) لابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي، موقوفاً على هارون بن رثاب. وهو ثقة عابد (تقريب التهذيب ٣١١/٢).

وقلّ من تنبّه له وتنبّه عليه، وأشكل على كثير منهم هذا الاسم. وقالوا: لم يأت في القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به صفحاً، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقّه؛ لعلموا أنّ الربّ تعالى أحقّ به من جميع الخلق، كما هو أحقّ باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأنّ التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم. وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرّف خلقه به قال: «لا أحدٌ أصبرُّ على أذى سِمعِه من الله»، فعلمُ أربابِ البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزّة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإنّ مقابلةَ أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومنّ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم، أمرٌ لا يصبر عليه إلا الصّبور الذي لا أحدٌ أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإن العبدَ بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «فاز الصابرون بعزّ الدارين»؛ لأنهم نالوا من الله معيته. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وها هنا سرّ بديع وهو أنّ من تعلّق بصفة من صفات الربّ تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والربّ تعالى هو الصّبور، بل لا

أحد أصبر على أذى سمعه منه . وقد قيل : إن الله سبحانه أوحى إلى داود :
«تخلّق بأخلاقى فإن من أخلاقى أنى أنا الصبور» .

والرب تعالى يحبّ أسماءه وصفاته، ويحبّ مقتضى صفاته وظهور
آثارها في العبد؛ فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحبّ أهل العفو، كريم
يحبّ أهل الكرم، عليم يحبّ أهل العلم، وتر يحبّ أهل الوتر، قوي
والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحبّ الصابرين،
شكور يحبّ الشاكرين .

وإذا كان سبحانه يحبّ المتّصّفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب
نصيبهم من هذا الاتّصاف، فهذه المعية الخاصّة عبّر عنها بقوله : «كنتُ له
سمعاً، وبصراً، وبدأً، ومؤيِّداً»^(١) .

ومن أقسام الصبر: الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر،
وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن
يُفسّره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت؛ وهي الصبر على أقضيته، والصبر
على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه
على أحكامه، يدور معها حيث دارت فيكون دائماً من الله لا مع نفسه، فهو
مع الله بالمحبة وبالموافقة، فهذا المعنى حقّ، ولكن مداره على الصبر
على الأنواع المتقدّمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع

(١) جزء من حديث رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء رقم (١)، والحلية
(٣١٩/٨) وقال: غريب من حديث أنس، والطبراني كما في (جامع العلوم
والحكم ص ٣٣٨)، وابن مردويه والحكيم وابن عساكر. (كنز العمال ١١٦٠).
وفي إسناده: الحسن بن يحيى الخشني؛ صدوق، كثير الغلط. (تقريب التهذيب
١/١٧٢). وصدقة الدمشقي؛ ضعيف. (تقريب التهذيب ١/٣٦٦). وقال
الهيثمي: وهشام - أي الكنانى - لا يُعرف. (جامع العلوم ص ٣٣٨).

الصبر، فهذا حقّ ولكنّ جعله قسماً رابعاً من أقسام الصبر غير مستقيم. واعلم أنّ حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو ألا يروغ عنه ووغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه، وعكوف القلب عليه.

وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسماه: الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له، وهذا كما يقال: فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب^(١):

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصالِ شلو ممزّع^(٢)
وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي حديث جابر أنّ الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: «تمنّ، قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أقتلَ فيك مرة ثانية»^(٣).

وقال ﷺ: «ولقد أوديتُ في الله وما يُؤذَى أحد»^(٤)

(١) هو خبيب بن عدي الأوسي الأنصاري: صحابي، شهد بدرأ، واستشهد في عهد النبي ﷺ. (الإصابة ١/٤١٨).

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها خبيب حين بلغه أن المشركين قد اجتمعوا لصلبه. قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر يُنكرها له. «السيرة النبوية ٣/١٨٥». «أوصال»: مفاصل. «شلو»: الشلو: العضو من أعضاء اللحم، وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرّق. «ممزّع»: مُقطّع.

(٣) رواه الترمذي (٣٠١٠) في تفسير القرآن، باب: ومن سورة آل عمران، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (٢٠٤/٣) وصححه. وذكره ابن حجر في (فتح الباري ٦/٣٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٧٢) في صفة القيامة، باب (٣٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (١٥١) في المقدمة، باب: في فضائل أصحاب =

وهذا يُفهم منه معنيان:

أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله. وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث «تعلمتُ فيك العلم»^(١).

والثاني: أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره، وغالب ما يأتي قولهم «ذلك في الله» في هذا المعنى^(٢).
وقال ابن القيم نظاماً:

وهو الصَّبُورُ على أذى أعدائه	شتموه بل نَسَبُوه للبهتان
قالوا: له وَلَدٌ، وليس يُعِيدُنَا	شَمَاءً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعِهِ وبعلمِهِ	لو شاءَ عاجلَهُم بكلِّ هوان
لكن يعافينهم ويرزقهم وهُم	يؤذونه بالشُّركِ والكُفْرانِ

وقد شرح الشيخ عبد الرحمن السعدي هذه الآيات بقوله: ومن أسمائه الحسنی «الصبور»، وهو مبالغة من صَابِرٍ، ومعنى الصبر: حَبْسُ النفس على ما تكره، وضده الجزع، وهو في حق الله تعالى معناه حلمه على أعدائه مع ارتكابهم ما يُوجب غضبه؛ من شتمه وتكذيبه وتكذيب رسله ومعاندتهم لآياته ومحاربتهم لدينه وشرعه، وهو لا يزال يتابع عليهم نعمه ويدرّ عليهم أخلاف رزقه، وصبرُهُ تعالى أكملُ صبر؛ لأنه عن كمال قدرة، وكمال غنى عن الخلق، وكمال رحمة وإحسان.

وقد فسّر المؤلف هذا الاسم الكريم بما ورد به الحديث الصحيح من

= رسول الله ﷺ، وأحمد (٣/١٢٠ و ٢٨٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) في الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار،

والنسائي (٢٤/٦) في الجهاد، باب: من قاتل ليقال فلان جريء، وأحمد

(٢/٣٢٢)، ولفظه: «تعلمتُ العلم وعلمتُهُ وقرأتُ فيك القرآن».

(٢) عدة الصابرين ص (٢٧٤).

قوله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد، وهو يعافهم ويرزقهم»^(١).

وبما ثبت أيضاً في الصحيح من قوله تعالى في الحديث القدسي: «كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بداني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليّ من إعادته، وأما شتمه. إياي فقوله: إنّ لي ولداً، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٢).

ومن أجل أنه سبحانه صبور فهو يحبُّ الصابرين من عباده، ويعينهم في كلِّ أمورهم، وسيوفيهم أجرهم بغير حساب^(٣).

(١) سبق تخريجه ص (١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٨٤) في التفسير، باب: سورة ﴿قل هو الله أحد﴾، والنسائي

(١١٢/٤) في الجنائز، باب: أرواح المؤمنين، وأحمد (٣١٧/٢).

(٣) شرح القصيدة التونية ص (٨٨).

الجميل

ومن أسمائه الحسنی: الجمیل، ومن أحقّ بالجمالِ ممّن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه، فله جمالُ الذات، وجمالُ الأوصاف، وجمالُ الأفعال، وجمالُ الأسماء، فأسماءه كلّها حسنی، وصفاته كلّها كمال، وأفعاله كلّها جميلة، فلا يستطيعُ بشرٌ النظرَ إلى جلاله وجماله في هذه الدار^(١)، فإذا رآوه سبحانه في جنات عدن أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيءٍ غيره.

ولولا حجاب النور على وجهه لأحرقَتْ سُبُحات وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه، كما في صحيح البخاري من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

(٢) لم نجده في صحيح البخاري، بل رواه مسلم (١٧٩) في الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»، وابن ماجه (١٩٦) في هذه المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، وأحمد (٣٩٥/٤ و ٤٠١ و ٤٠٥).

«القسط»: الميزان. «سُبُحات وجهه»: السبُحات: جمع سُبُحة، وقُسِّر سبُحات الوجه بجلالته.

نهار، نورُ السموات من نور وجهه، وإن مقدار كل يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس؛ فتعرض عليه أول النهار، أو اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات، فيطلع منها على بعض ما يكره فيغضبه ذلك، فأول من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش؛ يجدونه يثقل عليهم، فيسبحه الذين يحملون العرش، وسراقات العرش، والملائكة المقربون، وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى شيء إلا الثقلين: الجن والإنس، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمة؛ فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات؛ فيصوّركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فييسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى.

رواه عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن ابن مسعود رضي الله عنه، رواه الحسن بن إدريس، عن خالد بن الهياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن معدان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليل، وإن السموات مملوءات نوراً من نور الكرسي، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعة، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أول من يعلم بغضبه حملة العرش؛ يرونها يثقل عليهم فيسبحون له، ويسبح له سراقات العرش في ثلاث ساعات من النهار، حتى يمتلىء ربنا رضاءً، فتلك ست ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق

الخلايق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كلّ دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدة لمن يشاء من ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعة، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى^(١).

وفي دعاء النبي ﷺ الذي دعا به يوم الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلّ عليّ غضبك، أو ينزل عليّ سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٢).

وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلّها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الزمر: ٦٩]^(٣).

-
- (١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٧/١) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٣٧/٢) مختصراً، وقال: هذا موقوف ورواه غير معروف.
- (٢) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد ٣٥/٦): رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقيّة رجاله ثقات. وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٦١/٢).
- (٣) روضة المحبين (ص ٤٠٢).

الرفيق

قال ابن القيم نظاماً:

وهو الرفيقُ يحبُّ أهلَ الرِّفقِ بَلْ يُعْطِيهِمْ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه لهذا البيت:

ومن أسمائه سبحانه (الرفيق)، وهو مأخوذٌ من الرِّفق؛ الذي هو التأنِّي في الأمور والتدرُّج فيها، وضدّه العنف؛ الذي هو الأخذُ فيها بشدّة واستعجال.

وتفسيرُ المصنف لهذا الاسم الكريم مأخوذٌ من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ أَهْلَ الرَّفْقِ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»^(١).

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٢)، وأبو داود (٤٨٠٧) في الأدب، باب: في الرفق، وأحمد (٨٧/٤). من حديث عبد الله بن مغفل.

ورواه مسلم (٢٥٩٣) في البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق. من حديث عائشة.

ورواه ابن ماجه (٣٦٨٨) في الأدب، باب: الرفق، وابن حبان في صحيحه (٥٥٠)، من حديث أبي هريرة.

ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤١٥) من حديث علي.

ورواه البزار في كشف الأستار (١٩٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٠٦٥) من حديث أنس.

وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٩/٨): رواه الطبراني، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، وثقه أبو حاتم الرازي، وضعفه الجمهور، وبقي رجاله ثقات.

فَاللَّهُ تَعَالَى رَفِيقٌ فِي أَعْمَالِهِ؛ حَيْثُ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا بِالتَّدرِيجِ شَيْئاً فِشَيْئاً بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَرَفَقِهِ، مَعَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً وَفِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَهُوَ سَبْحَانَهُ رَفِيقٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَلَا يَأْخُذُ عِبَادَهُ بِالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ بَلْ يَتَدْرَجُ مَعَهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، حَتَّى تَأْلَفَهَا نَفُوسُهُمْ، وَتَأْنَسَ إِلَيْهَا طِبَاعُهُمْ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ سَبْحَانَهُ فِي فَرَضِيَةِ الصِّيَامِ وَفِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالرِّبَا وَنَحْوِهَا.

فَالْمَتَأَنِّي الَّذِي يَأْتِي الْأُمُورَ بِرَفْقٍ وَسَكِينَةٍ اتِّبَاعاً لِسُنَنِ اللَّهِ فِي الْكُونِ، وَاقْتِدَاءً بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَسَيَّرُ لَهُ الْأُمُورُ وَتَذَلُّ الصَّعَابُ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِمَّنْ يَتَصَدَّى لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ مُضْطَّرٌّ إِلَى اسْتِشْعَارِ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] (١).

(١) شرح القصيدة النونية (ص ٩٣).

المغيث

قال ابن القيم نظماً:

وهو المغيث لكل مخلوقاته وكذا يجيبُ إغاثةَ اللفهان

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه لهذا البيت:

المغيث اسم فاعل من الغوث، وهو تفريجُ الكرب وإزالة الشدة، فهو سبحانه المغيثُ لجميع المخلوقات عندما تتعسرُ أمورُها، وتقع في الشدائد والكربات. وفي الحديث: «يعجب ربنا من قنوطِ عباده وقرب خَيْرِهِ، ينظرُ إليكم أزلين قنطين، يظلُّ يضحك يعلمُ أنَّ فَرَجَكُمْ قريبٌ»^(١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْئِتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى: ٢٨].

وهو الذي يجيبُ إغاثة اللفهان^(٢)، أي: دعوة مَنْ دعاه في حال اللفف والشدة والاضطرار، فمن استغاثَ به سبحانه أغاثه من لهفته، وأنقذه من شدته^(٣).



(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٥٩/١) من حديث أبي رزين. و«أزلين»: من الأزل، وهو الشدة والضيق. وقد أزل الرجلُ: أي: صار في ضيق وجذب.

(٢) في الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللفهان». رواه البيهقي وابن عبد البر.

(٣) شرح القصيدة النونية (ص ٩٦).

الباب الثالث

دلالة أسماء الله الحسنى

الفصل الأول: الاسم والمسمى .

الفصل الثاني: معرفة الصفات والنعوت .

الفصل الثالث: طريقة القرآن الكريم في ورود أسماء الله تعالى .

الفصل الرابع: معاني الإضافة في قوله: ﴿رب الناس * ملك الناس * إله الناس﴾ .

الفصل الخامس: الحكمة في اقتران أسماء الله تعالى، وختم الآيات بها .

الفصل الأول الإسم والمسمّى

الأسماء قوالب للمعاني:

لَمَّا كَانَتِ الْأَسْمَاءُ قَوَالِبَ لِّلْمَعَانِي وَدَالَّةً عَلَيْهَا، اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ارْتِبَاطٌ وَتَنَاسُبٌ، وَأَلَّا يَكُونَ مَعَهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَجْنَبِيِّ الْمُحْضَرِّ، الَّذِي لَا تَعْلُقُ لَهُ بِهَا، فَإِنَّ حِكْمَةَ الْحَكِيمِ تَأْتِي ذَلِكَ، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِخِلَافِهِ، بَلْ لِّلْأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمَسْمُومَاتِ، وَلِلْمَسْمُومَاتِ تَأْثَرٌ عَنِ أَسْمَائِهَا فِي الْحَسَنِ وَالْقُبْحِ وَالْخُفَةِ وَالثَّقَلِ وَاللِّطَافَةِ وَالْكَثَافَةِ، كَمَا قِيلَ:

وَقَلَّ إِنْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ ذَا الْقَلْبِ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لِقْبِهِ

وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِبُّ الْإِسْمَ الْحَسَنَ، وَأَمَرَ إِذَا أُبْرِدُوا إِلَيْهِ بِرِيْدٍ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْإِسْمِ، حَسَنَ الْوَجْهِ، وَكَانَ يَأْخُذُ الْمَعْنَى مِنْ أَسْمَائِهَا فِي الْمَنَامِ وَالْيَقِظَةِ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَمَكْنَةَ الْمُنْكَرَةَ الْأَسْمَاءِ، وَيَكْرَهُ الْعُبُورَ فِيهَا كَمَا مَرَّ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَسَأَلَ عَنْ اسْمَيْهِمَا، فَقَالُوا: فَاضِحٌ، وَمَخْزٌ، فَعَدَلَ عَنْهُمَا وَلَمْ يُجْزُ بَيْنَهُمَا.

وَلَمَّا كَانَ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْمَسْمُومَاتِ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ وَالتَّنَاسُبِ وَالقَرَابَةِ مَا بَيْنَ قَوَالِبِ الْأَشْيَاءِ وَحَقَائِقِهَا، وَمَا بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ، عَبَرَ الْعَقْلُ مِنْ كُلِّ مَنَّهُمَا إِلَى الْآخَرِ.

اقتضاء الاسم لمسمّاه:

وَلَمَّا كَانَ الْإِسْمُ مَقْتَضِيًا لِمَسْمَاهُ، وَمَوْثِرًا فِيهِ، كَانَ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ

إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه كعبد الله وعبد الرحمن^(١)، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن، أحب إليه من إضافتها إلى غيرهما، كالقاهر، والقادر. فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القادر، وعبد الله أحب إليه من عبد ربه، وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة؛ فبرحمته كان وجوده، وكمال وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتأله له وحده محبةً، وخوفاً، ورجاءً، وإجلالاً، وتعظيماً؛ فيكون عبد الله، وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي تستحيل أن تكون لغيره، ولما غلبت رحمته غضبه، وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر.

فإن قيل: فالاسم هو المسمّى أو غيره؟ قيل: طالما غلط الناس في ذلك، وجهلوا الصواب فيه فالاسم يراد به المسمّى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى^(٢). فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشه، وسمع الله، ورأى، وخلق، فهذا المرادُ به المسمّى نفسه. وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله، والرحمن وزنه فعلان، والرحمن مشتق من الرحمة، ونحو ذلك، فالاسم — هاهنا — للمسمّى، ولا يقال غيره؛ لما في لفظ الغير من الإجمال، فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسماً، أو حتى سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا

(١) قال ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبدُ الله وعبدُ الرحمن» رواه مسلم (٢١٣٢).

(٢) انظر المقصد الأسنى للغزالي (ص ٢٩).

من أعظم الضلال والإلحاد، فقولُه في الحديث: «سَمَّيتَ به نفسك»^(١) ولم يقل: خلقتَه لنفسك، ولا قال: سمَّاك به خلقك، دليل على أنه سُبْحانَه تكَلَّمَ بذلك الاسم، ويسمِّي به نفسه، كما سمَّى نفسه في كتبه التي تكَلَّمَ بها حقيقةً بأسمائه^(٢).

صفاته تعالى داخلة في مسمَّى اسمه:

إنَّ صفات الرب — جلَّ جلاله — داخلةٌ في مسمَّى اسمه، فليس اسمه «الله»، و«الرب»، و«الإله» أسماء لذات مجردة، لا صفة لها ألبتة، فإن هذه الذات المجردة وجودها مستحيل، وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات، ثم يحكم عليها. واسم «الله» سبحانه «والرب»، و«الإله» اسمٌ لذاتٍ لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال، كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والبقاء، والقدم، وسائر الكمال الذي يستحقُّه اللُّهُ لذاته، فصفاته داخلة في مسمَّى اسمه، فتجريد الصفات عن الذات، والذات عن الصفات: فرض وخيال ذهني لا حقيقة له، وهو أمرٌ اعتباري لا فائدة فيه، ولا يترتب عليه معرفة، ولا إيمان، ولا هو علم في نفسه^(٣).

كلامه تعالى داخل في مسمَّى اسمه:

وكلامه تعالى داخلٌ في مسمَّى اسمه، فالله تعالى اسمُ الذات الموصوفة بصفات الكمال، ومن تلك الصفات: صفة الكلام، كما أن علمه، وقدرته، وحياته، وسمعه، وبصره غير مخلوقة، وإذا كان القرآن

(١) رواه أحمد (١/٣٩١).

(٢) زاد المعاد (٧/٣) وشفاء العليل (٢٧٦ - ٢٧٧).

(٣) مدارج السالكين (٣/٣٦٢).

كلامه - وهو صفة من صفاته - فهو متضمَّنٌ لأسمائه الحسنی، فإذا كان القرآن غيرَ مخلوق، ولا يقال: إنه غير الله، فكيف يقال: إن بعض ما تضمنه - وهو أسماؤه - مخلوقة، وهي غيره؟! فقد ححص الحقُّ بحمد الله، وانحسم الإشكال.

وإن أسماء الحسنی التي في القرآن من كلامه، وكلامه غير مخلوق، ولا يقال: هو غيره، ولا هو هو، وهذا المذهبُ مخالفٌ لمذهب المعتزلة الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره، وهي مخلوقة، ولمذهب من ردَّ عليهم ممن يقول: اسمه نفس ذاته لا غيره، وبالتفصيل تزول الشُّبُه، ويتبيَّن الصواب، والحمد لله^(١).

التَّرادف والتَّباین في أسماء الحسنی:

اختلف النَّظَارُ في هذه الأسماء: هل هي متباينةٌ نظراً إلى تباين معانيها، وأن كلَّ اسم يدلُّ على معنى غير ما يدلُّ عليه الآخر، أم هي مترادفة؛ لأنها تدلُّ على ذات واحدة، فمدلولها لا تعدُّد فيه، وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفةٌ بالنظر إلى الذات، متباينةٌ بالنظر إلى الصفات، وكلَّ اسم منها يدلُّ على الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة، على أحدهما وحده بالتضمُّن، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام^(٢).

معرفة المثل الأعلى:

ليس في الدنيا ممَّا في الآخرة إلا الأسماء والصفات، ولم يمنعهم

(١) بدائع الفوائد (١٨/١).

(٢) جلاء الأفهام (٩٦).

عدمُ النظر في الدنيا من فهم ما أخبروا به من ذلك .

فهكذا الأسماء والصفات لم يمنعهم انتفاء نظيرها ومثالها من فهم حقائقها ومعانيها، بل قام بقلوبهم معرفة حقائقها، وانتفاء التمثيل والتشبيه عنها، وهذا هو المثل الأعلى الذي أثبتته الله تعالى لنفسه في ثلاثة مواضع من القرآن .

أحدها: قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ لِئَلَّا يُعْبُدُوهُ وَأَهْوَتْ عَلَيْهِ رِئَاسَةَ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فنفى سبحانه وتعالى المثل عن هذا المثل الأعلى، وهو ما في قلوب أهل سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ من معرفته، والإقرار بربوبيته، وأسمائه، وصفاته، وذاته .

فهذا المثل الأعلى هو الذي آمن به المؤمنون، وأنس به العارفون، وقامت شواهدُه في قلوبهم بالتعريفات الفطرية المكملة بالكتب الإلهية، المضبوطة بالبراهين العقلية، فاتفق على الشهادة بشوته: العقل، والسمع، والفطرة .

فإذا قال المثبت: يا الله! قام بقلبه: رَبُّ قِيَوْمٍ قائم بنفسه، مستوٍ على عرشه، مكلمٌ، متكلمٌ، سامعٌ، قديرٌ، مریدٌ، فعَالٌ لما يريد، يسمع دعاء الداعين، ويقضي حاجات السائلين، ويفرِّج عن المكروبين. ترضيه

الطاعات، وتغضبه المعاصي. تعرج الملائكة بالأمر إليه، وتنزل بالأمر من عنده (١).



الفصل الثاني معرفة الصفات والنحو

الفرق بين الصفة والنعمة من وجوه ثلاثة (٢):

أحدها: أن النعمة يكون بالأفعال التي تتجدد، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٠ - ١٢] ونظائر ذلك.

والصفة هي الأمور الثابتة اللازمة للذات. كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢١٦﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ

(١) الصواعق المرسله (ص ٦٤).

(٢) صرح الجوهري والفيومي وغيرهما بترادف الوصف والنعمة، وقال ابن الأثير: النعمة وصف الشيء بما فيه من حسن، والوصف يقال في الحسن والقبیح. وقال ثعلب: النعمة ما كان خاصاً بمحل من الجسد، والصفة للعموم، كالعظيم والكريم، فالله تعالى يوصف ولا ينعت.

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٣] إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

الفرق الثاني: أن الصفات الذاتية لا يُطلق عليها اسم النعوت؛ كالوجه، واليدين، والقدم، والأصابع. وتسمى صفات. وقد أُطلق عليها السلفُ هذا الاسم، وكذلك متكلمو أهل الإثبات، سمّوها صفات. فالمقصودُ: إطلاقُ هذه الإضافات عليه سبحانه، ونسبتها إليه، والإخبار عنه بها، منزّهةً عن التمثيل والتعطيل، سواء سُميت صفاتٍ، أو لم تسم.

الفرق الثالث: أن النعوت ما يظهر من الصفات ويشتهر، ويعرفه الخاص والعام، والصفات: أعم، فالفرق بين «النعوت» و«الصفة» فرق ما بين الخاص والعام. ومنه قولهم في تحلية الشيء: نَعْتُهُ كَذَا وكَذَا؛ لما يظهر من صفاته.

وقيل: هما لغتان، لا فرق بينهما. ولهذا يقول نحاة البصرة: «باب الصفة» ويقول نحاة الكوفة: «باب النعت» والمراد واحد. والأمر قريب^(١).

اشتقاق اسم الجلالة:

أظهر الألفاظ لفظ الله، وقد اختلف الناس فيه أعظم اختلاف: هل هو مشتق أم لا؟ وهل هو مشتق من التأله أو من الوَلَّه أو من لاه إذا احتجب^(٢)؟

(١) مدارج السالكين (٣/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) قال ابن القيم في الكافية الشافية حول اسم (الله) تعالى:

وخلافهم فيه كثير ظاهر عسري وضع ذلك أم سرياني =

إن جميع أهل الأرض علمائهم وجهلائهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لا يعرفه، وعربهم وعجمهم يعلمون أن (الله) اسم لرب العالمين خالق السموات والأرض؛ الذي يحيي ويميت، وهو ربُّ كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يُرادُ به هذا المسمّى، وهو أظهرُ عندهم، وأعرف، وأشهر من كل اسم وُضع لكل مسمّى، وإن كان الناسُ متنازعين في اشتقاقه، فليس ذلك بتزاع فهمٍ في معناه.

أما اشتقاقه فالقول الصَّحیحُ أَنَّ (الله) أصله: الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شدَّ منهم^(١). وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى^(٢).

اشتقاق اسم الله تعالى:

زعم الشَّهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أنَّ اسمَ الله غير مشتق؛ لأنَّ

وكذا اختلافهم أمشتقاً يرى	أم جامداً قولان مشهوران	=
والأصل ماذا فيه خلف ثابت	عند النحاة وذاك ذوا ألوان	
هذا لفظ الله أظهر لفظه	نطق اللسان بهامدى الأزمان	

(١) لسيبويه رايان في اشتقاق لفظ الجلالة اعتمد ابن القيم أقواهما.

يرى سيبويه في الجزء الأول (ص ٣٠٩) أن أصله (أله) قال: وكان الاسم - والله أعلم - أله، فلما أدخل فيه الألف واللام حذفوا الألف، وصارت الألف واللام خلفاً منهما، وفي الجزء الثاني (ص ١٤٤) يرى أن أصل الاسم فيه: لاه. قال: كما حذفوا اللامين من قولهم: لاه أبوك، حذفوا لام الإضافة واللام الأخرى، ليخففوا الحرف على اللسان وذلك ينوون والمعروف أن هذا الحذف لضرورة، فيبقى الرأي الأول هو الوجه وانظر كتاب سيبويه (١/٣٠٩) و (٢/١٤٤ - ١٤٥)، المقتضب (٤/٢٤٠)، المخصص (١٧/١٤٣)، الخزانة (٤/٣٤١ - ٣٤٢).

(٢) الصواعق المرسلة (ص ٩٢) وبدائع الفوائد (٢/٢٤٩).

الاشتقاق يستلزمُ مادة يُشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق. ولا ريبَ أنه إن أُريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمدُّ من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دالّ على صفة له تعالى، وهي: الإلهية كسائر أسمائه الحسنی كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسَّميع، والبصير، فإنَّ هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمةٌ، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه الله، ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولّدة منها، تولّد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولّد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمّن الآخر وزيادة.

وقول سيبويه^(١): إِنَّ الفِعْلَ أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء هو بهذا الاعتبار، لا أن العرب تكلموا بالأسماء أولاً، ثم اشتقوا منها الأفعال، فإنَّ التخاطبَ بالأفعال ضروري كالتخاطب بالأسماء، لا فرق بينهما، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي، وإنما هو اشتقاق تلازم سمى المتضمّن (بالكسر) مشتقاً، والمتضمّن (بالفتح) مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى^(٢).

معاني ﴿سبحانك اللهم﴾ :

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ

(١) انظر: الكتاب (٣/١).

(٢) بدائع الفوائد (١/٢٢ - ٢٣).

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ [يونس : ٩ - ١٠].

عن ابن جريج أن قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه قالوا: ﴿سبحانك اللهم﴾ وذلك دعواهم، فيأتيهم المَلَكُ بما اشتهوا فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

وعن قتادة قوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ يقول: ذلك دعاؤهم فيها، وتحيتهم فيها سلام.

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: ﴿سبحانك اللهم﴾ فيأتيهم ما دعوا به.

ومعنى هذه الكلمة تنزيه الربِّ تعالى، وتعظيمه، وإجلاله عمَّا لا يليق به.

وذكر سفيان عن عثمان بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ﷺ عن (سبحان الله) فقال: «تنزيه الله عن السوء»^(١).

وسأل ابن الكواء علياً عنها فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه.

وقال حفص بن سليمان بن^(٢) طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عن كل سوء»^(٣).

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٦/١) وقال: هذا منقطع، وروي من وجه آخر.

(٢) كذا في المطبوع، وفي: الأسماء والصفات للبيهقي: جعفر بن سليمان، عن.

(٣) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٦/١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد =

فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئاً قالوا:
سبحان الله، وعن آخر دعواهم عندما يحصل لهم، وهو قولهم: الحمد لله
رب العالمين.

ومعنى الآية أعظم من هذا، والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يُراد به
الثناء، ويُرادُ به المسألة.

وفي الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين»^(١) فهذا دعاء
ثناء وذكر، يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله
تسبيح، وآخره حمد، يلهمونهما كما يلهمون النَّفْسَ.

وفي هذا إشارة إلى أن التكليفَ في الجنة يسقط عنهم، ولا تبقى
عبادتهم إلا هذه الدعوى التي يلهمونها، وفي لفظة «اللهم» إشارة إلى
صريح الدعاء، فإنَّها متضمَّنةٌ لمعنى يا الله، فهي متضمنة للسؤال والثناء،
وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم،
فذكروا بعض المعنى، ولم يستوفوه مع أنهم قصَّروا به، فإنهم أوهموا أنهم
إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدلُّ على ذلك،
بل يدلُّ على أنَّ أول دعائهم التسبيح، وآخره الحمد.

وقد دلَّ الحديثُ الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون
النَّفْسَ، فلا تختصُّ الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء، وهذا كما أنه
لا يليق بمعنى الآية، فهو لا يليق بحالهم، والله تعالى أعلم بالصواب^(٢).

= (١٠/٩٤): رواه البزار، وفيه عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب
هذا وغيره.

(١) رواه البيهقي كما في كنوز الحقائق (ص ٢٤) بلفظ: «أفضل الذكر الحمد لله».

(٢) حادي الأرواح (ص ٢٩٢ - ٢٩٣).

معاني اللَّهْمَّ:

لا خلافَ أَنَّ لفظَةَ «اللهم» معناه: «يا الله» ولهذا لا تستعملُ إلا في الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اغفر لي، وارحمني. واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم.

فقال سيبويه: زيدت عوضاً من حرف النداء؛ ولذلك لا يجوزُ عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: «يا اللهم» إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إِنِّي إِذَا مَا حَدَّثْتُ الْمَأْمَأَ أَقُولُ: يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّ

ويُسَمَّى ما كان من هذا الضربِ عوضاً؛ إذ هو في غير محلِّ المحذوف، فإن كان في محله سُمِّي بدلاً، كالألف في «فام» و«باع» فإنها بدل عن الواو والياء.

ولا يجوز عنده أن يُوصَفَ هذا الاسم أيضاً، فلا يقال: «اللهم الرحيم ارحمني» ولا يبدلُ منه.

والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفتحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها، وهذا من خصائص هذا الاسم، كما اختصَّ بالتاء في القسم، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف، وبقطع همزة وصله في النداء، وتفخيم لاه وجوباً غير مسبوقه بحرف إطباق.

هذا ملخصُ مذهب الخليل وسيبويه.

وقيل: الميم عوض عن جملة محذوفة، والتقدير: «يا الله أُمَّنَّا بخير» أي: اقصدنا، ثم حذف الجار والمجرور، وحذف المفعول، فتبقى في التقدير: «يا الله أم» ثم حذفت الهمزة لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم، فبقي «يا اللهم» وهذا قول الفراء.

وصاحب هذا القول يجوزُ دخول «يا» عليه، ويحتج بقول الشاعر:

..... يَا اللَّهُمَّ ارْذُدْ عَلَيْنَا شَيْخَانَا مُسَلِّمًا

وبالبيت المتقدم وغيرهما .

ورد البصريون هذا بوجهه :

أحدها : أنّ هذه تقادير لا دليل عليها، ولا يقتضيها القياس، فلا يصارُ إليها بغير دليل .

الثاني : أن الأصلَ عدم الحذف، فتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل .

الثالث : أن الداعي بهذا قد يدعو بالشرُّ على نفسه وعلى غيره، فلا يصحُّ هذا التقدير فيه .

الرابع : أن الاستعمالَ الشائعَ الفصيحَ يدلُّ على أن العربَ لم تجمعَ بين «يا» و«اللهم» ولو كان أصله ما ذكره الفراء لم يمتنع الجمع، بل كان استعماله فصيحاً شائعاً، والأمر بخلافه .

الخامس : أنه لا يمتنع أن يقول الداعي : «اللهم أمّنا بخير»، ولو كان التقدير كما ذكره، لم يجز الجمع بينهما لما فيه من الجمع بين العوض والمعوّض عنه .

السادس : أنّ الداعي بهذا الاسم لا يخطر ذلك بباله، وإنما تكون عنايته مجردة إلى المطلوب بعد ذكر الاسم .

السابع : أنه لو كان التقدير ذلك لكان : «اللهم» جملة تامة يحسن السكوت عليها لاشتمالها على الاسم المنادى وفعل الطلب، وذلك باطل .

الثامن : أنه لو كان التقدير ما ذكره لكتب فعل الأمر وحده، ولم يوصل الاسم المنادى، كما يقال : «يا الله قه» و«يا زيد عه» و«يا عمرو فه»؛ لأن الفعل لا يوصلُ بالاسم الذي قبله حتى يجعلها في الخط كلمة واحدة، هذا لا نظير له في الخط . وفي الاتفاق على وصل الميم باسم الله دليلٌ على أنها ليست بفعل مستقل .

التاسع: أنه لا يسوغ ولا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أمني بكذا، بل هذا مستكره اللفظ والمعنى، فإنه لا يقال: اقصدني بكذا إلا لمن كان يعرض له الغلط والنسيان، فيقول له: اقصدني، وأما من كان لا يفعل إلا بإرادته، ولا يضل، ولا ينسى، فلا يقال له: اقصد كذا.

العاشر: أنه يسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء، كقوله ﷺ في الدعاء: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(١). وقوله: «اللهم إني أصبحت أشهدك، وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله، لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.

وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقول النبي ﷺ في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»^(٣).

فهذا كله لا يسوغ فيه التقدير الذي ذكره، والله أعلم.

وقيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم، كزيادتها في «زرقم» لشديد

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، كما في مجمع الزوائد (١٠/١٨٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٦٩) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح.

(٣) رواه أحمد (١/٣٩٢ و ٣٩٤) وابن خزيمة (٨٤٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠٩/٢).

الزرقة، «وابنم» في الابن، وهذا القول صحيح، ممكن، يحتاج إلى تنمة. وقائله لحظ معنى صحيحاً لا بدُّ من بيانه، وهو: أن الميم تدلُّ على الجمع وتقتضيه، ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مطرد على أصل مَنْ أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أساطين العربية، وعقد له أبو الفتح بن جني باباً في «الخصائص»، وذكره عن سيبويه، واستدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى، ثم قال: «ولقد مكثت برهة يرد عليّ اللفظ لا أعلم موضوعه، وأخذ معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشف فأجده كما فهمته أو قريباً منه». فحكيتُ لشيخ الإسلام هذا عن ابن جني، فقال: وأنا كثيراً ما يجري لي ذلك، ثم ذكر لي فصلاً عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ، وأنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة خفيفة للمعنى الخفيف، والمتوسطة للمتوسط، فيقولون «عَزَّ يَعَزُّ» بفتح العين إذا صلب، «وأرض عزاز» صلبة، ويقولون «عَزَّ يَعِزُّ» بكسرها، إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلباً ولا يمتنع على كاسره، ثم يقولون: «عزّه يعزّه» إذا غلبه، قال الله تعالى في قصة داود: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: ٢٣] والغلبة أقوى من الامتناع؛ إذ قد يكون الشيء ممتنعاً في نفسه، متحصناً عن عدوه ولا يغلب غيره، فالغالب أقوى من الممتنع، فأعطوه أقوى الحركات، والصلب أضعف من الممتنع، فأعطوه أضعف الحركات، والممتنع المتوسط بين المرتبتين فأعطوه حركة الوسط.

ونظيرُ هذا قولهم «ذبح» بكسر أوله للمحل المذبوح، و«ذبح» بفتحه لنفس الفعل، ولا ريب أن الجسم أقوى من العَرَض، فأعطوا الحركة القوية للقوي، والضعيفة للضعيف.

وهو مثل قولهم (نهب) و (نهب) بالكسر للمنهوب، وبالفتح للفعل .
وكقولهم: (مِلء) (مَلء) بالكسر لما يملأ الشيء، وبالفتح للمصدر
الذي هو الفعل .

وكقولهم: (حِمَل) و (حَمَل) فبالكسر لما كان قوياً مثقلاً لحامله على
ظهره، أو رأسه، أو غيرهما من أعضائه، والحمل بالفتح لما كان خفيفاً
غير مثقل لحامله كحمل الحيوان، وحمل الشجرة به أشبه ففتحوه .

وتأمل هذا في الحِبِّ والحُبِّ، فجعلوا المكسور الأول لنفس
المحجوب، ومضمومه للمصدر إيذاناً بخفة المحجوب على قلوبهم، ولطف
موقعه من أنفسهم وحلاوته عندهم، وثقل حمل الحب ولزومه كما يلزم
الغريم غريمه . ولهذا يسمى (غراماً)، ولهذا كثر وصفهم لتحمله بالشدة
والصعوبة، وإخبارهم بأن أعظم المخلوقات، وأشدّها من الصخر
والحديد، ونحوهما لو حمله لذاب من حمله، ولم يستقل به، كما هو
كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين وكلامهم .

وقوله تعالى في الآيات المحكمات: ﴿ هُنَّ أُمَّ الْكَاتِبِ ﴾ [آل عمران :
٧] والأمة: الجماعة المتساوية في الخلقة أو الزمان . قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ
دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨] وقال
النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»^(١) .

ومنه (الإمام) الذي يجتمع المقتدون به على أتباعه، ومنه أم الشيء
بأنه إذا جمع قصده وهمه إليه، ومنه: «رم الشيء يرثه» إذا أصلحه،
وجمع متفرقه . قيل: ومنه سُمِّي الرمان لاجتماع حبه وتضامته .

ومنه: «ضم الشيء يضمه» إذا جمعه، ومنه: هم الإنسان وهمومه،

(١) رواه أحمد (٥٤/٥) .

وهي: إرادته وعزائمه التي تجتمع في قلبه.

ومنه قولهم للأسود: «أحم» والفحمة السوداء «حممة» و«حم رأسه» إذا اسودَّ بعد حلقه كله، هذا لأنَّ السواد لون جامع للبصر لا يدعه يتفرق. ولهذا يُجعل على عيني الضعيف البصر لوجع أو غيره شيء أسود من شعر أو خرقه؛ ليجمع عليه بصره فتقوى القوة الباصرة، وهذا بابٌ طويل، فلنقتصرُ منه على هذا القدر.

وإذا عَلِمَ هذا من شأن الميم، فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يُسأل به الله سبحانه في كل حاجة وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه وصفاته، فإذا قال السائل: «اللهم إني أسألك» كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما أصاب عبداً قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيعَ قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي وغمي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحاً»، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»^(١).

فالداعي مندوبٌ إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، كما في الاسم الأعظم: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

(١) رواه أحمد (١/٣٩١).

المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ، يا
قيوم^(١).

وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى.

أقسام الدعاء:

الدعاء ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التأويلين في

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذلك، فتقول: أنا العبد،

الفقير، المسكين، البائس، الذليل، المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك، ولا تذكر واحداً من الأمرين. فالأول

أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث. فإذا جمّع الدعاء الأمور الثلاثة
كان أكمل.

وهذه عامة أدعية النبي ﷺ^(٢).

معاني ﴿تبارك﴾:

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله:

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(١) سبق تخريجه (٥٠).

(٢) جلاء الأفهام (ص ٧٢ - ٧٣).

و ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠].

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

أفلا تراها كيف اطرّدت في القرآن جاريةً عليه، مختصةً به، لا تُطلق على غيره، وجاءت على بناء السّعة والمبالغة كتعالى، وتعاضم، ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) على بناء تعالى؛ الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دالٌّ على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاضم^(١).

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلّها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته، ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كلّ شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاضم.

وقيل: تبارك: تقدّس، والقدس: الطهارة.

وقيل: تبارك، أي: باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك: ارتفع، والمبارك: المرتفع، ذكره البغوي^(٢).

(١) قال الأزهري: تبارك: تعالى وتعاضم وارتفع، وقيل: إن باسمه يُتَبَرَكُ وَيُتَبَيَّنُ.

(٢) البغوي: هو الحسين بن مسعود أبو محمد، فقيه محدث، يلقب بـ: محيي السنة، له «تفسير لباب التأويل» وكتاب «مصاييح السنة» و«شرح السنة» توفي (٥١٠هـ).

وقيل: تبارك، أي: البركة تُكتسب وتُنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذَكَرَه البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة: أَنَّ البركةَ كثرةُ الخير ودوامه، ولا أحد أحقّ بذلك وصفاً وفعلاً منه^(١) تبارك وتعالى، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالى، وتقدّس، وتعاضم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً، ولا قدوساً، ولا عظيماً، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نُسبت إليه فهو المتعالي المتقدّس.

فكذلك (تبارك) لا يصحُّ أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى؟! هذا لازم وهذا متعدّ^(٢)، فعلمت أنّ من فسّر تبارك بمعنى ألقى البركة، وبارك في غيره، لم يُصِب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب: مجد، والمجد: كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزمُ اللازم من غير عكس فسّر من فسّر من السلف اللفظة بالمتعدي؛ لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلّها من عنده، أو البركة كلّها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه.

(١) قال الآلوسي: تبارك، أي: تقدس، وتنزه عن كل نقص... ولا يقال ذلك في غيره تعالى، بل هو صفة خاصة به سبحانه كما في القاموس. (تفسير روح المعاني ١٣٨/٨ - ١٣٩).

(٢) في اللسان: تبارك الله، أي: بارك الله، مثل: قاتل وتقاتل، إلا أن فاعل يتعدى، وتفاعل لا يتعدى. وقال الفراء: والعرب تقول: باركك الله، وبارك فيك. (اللسان برك).

وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب «الفتح المكي» وبيننا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته، فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركاً، ورسوله مباركاً، وبيته مباركاً، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول المسجد الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة^(١).

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢) فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الشناء، أعني: ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ، وأوجزه، وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً.

تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ﴾:

قوله: ﴿فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] وما كان من

(١) انظر في بيان الآيات الواردة في فضائل الشام كتاب: «حدايق الإنعام في فضائل الشام» لعبد الرحمن ابن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي، الباب الثاني منه. تحقيق يوسف بدوي.

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٠).

أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن .

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله^(١)، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد، ولم يرد من نفسه أن يعينه، ويجعله فاعلاً، لم يوجد الفعل، وإن أراد، حتى يريدَه من نفسه أن يجعله فاعلاً.

وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية^(٢) والجبرية^(٣)، وخطبوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها؛ فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريدُ فعله، ولا يريدُ من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل^(٤).

ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] فالتسيير فعله، والسير فعل العباد، وهو أثرُ التسيير، وكذلك الهدى والإضلال فعله، والاهتداء والضلال أثر فعله، وهما أفعالنا القائمة بنا،

(١) انظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ص ١٠٦، ١١٨).

(٢) قال ابن الأثير: سموا قدرية لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه (تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي ص ٧٢).

(٣) الجبرية (بفتح الجيم وسكون الباء) طائفة تسند فعل العبد إلى الله تعالى، وطائفة قالوا: لا قدرة للعبد أصلاً لا مؤثرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها. (تاريخ الجهمية ص ٢٨).

(٤) التبيان (ص ٦١).

فهو الهادي، والعبد المهتدي، وهو الذي يضل من يشاء والعبد الضال، وهذا حقيقة، وهذا حقيقة^(١).

كثرة صفات كماله ونعوت جلاله:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] هذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله، ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أُريدَ بها نفي الصفات، لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه، مع أنّ جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير، ولا شبيه، ولا مثل؛ أنه قد تميّز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فاق أمثاله، وبعُد عن مشابهة أضرابه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من أدلّ شيء على كثرة نعوته، وصفاته.

وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من أدلّ شيء على أنه يُرى ولا يُدرَك.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] من أدلّ شيء على مباينة الرب لخلقه؛ فإنه لم يخلقهم في ذاته بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه فيراهم، وينفذهم بصره، ويحيط بهم علماً، وقدرة، وإرادة، وسمعاً، وبصراً، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا.

وتأمل حُسنَ هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

(١) شفاء العليل (ص ٥٨).

وهو يدرك الأبصار ﴿ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار، وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثل شيء، وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير ^(١).

تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾:

أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله حاكياً عن نبيه هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ

إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيئَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]. والثاني قوله: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَانِهِ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

قال أبو إسحاق: أخبر أنه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

قال ابن الأنباري: لما قال: ﴿إلا هو أخذ بناصيتها﴾ كان في معنى: لا تخرج عن قبضته، قاهر بعظيم سلطانه كل دابة، فأتبع ذلك قوله: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: إنه على الحق. قال: وهذا نحو كلام العرب إذا وصفوا رجلاً حسن السيرة، والعدل، والإنصاف، قالوا: فلان طريقه حسنة، وليس ثمَّ طريق. وذكر في معنى الآية أقوال آخر ^(٢) هي من

(١) حادي الأرواح (ص ٢٠٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/٥٢ - ٥٣) وتفسير روح المعاني للألوسي (١٢/٨٤).

لوازم هذا المعنى وآثاره، كقوله بعضهم: إن ربي يدلُّ على صراط مستقيم، فدلالته على الصراط من موجبات كونه في نفسه على صراط مستقيم، فإنَّ تلك الدلالة والتعريف من تمام رحمته، وإحسانه، وعدله، وحكمته.

وقال بعضهم: معناه لا يخفى عليه شيء، ولا يعدل عنه هارب.

وقال بعضهم: المعنى لا مسلك لأحد، ولا طريق له إلا عليه،

كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِأَلْمَرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا المعنى حق، ولكن كونه هو المراد بالآية ليس بالبين، فإنَّ الناس كلَّهم لا يسلكون الصراط المستقيم، حتى يقال: إنهم يصلون سلوكه إليه. ولما أراد سبحانه هذا المعنى قال: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ رَبِّي يَقُولُ﴾ [يونس: ٧٠] ﴿إِنَّ إِلَهَنَا إِيَّاهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِأَلْمَرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

وأما وصفه سبحانه بأنه على صراط مستقيم فهو كونه يقول الحق، ويفعل الصواب، فكلماته صدق وعدل، كلُّه صواب وخير، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، فلا يقول إلا ما يحمد عليه لكونه حقاً، وعدلاً، وصدقاً، وحكمة في نفسه. وهذا معروف في كلام العرب، قال جرير يمدحُ عمرَ بن عبد العزيز:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا عوجَّ المواردُ مستقيمٍ

وإذا عرف هذا، فمن ضرورة كونه على صراط مستقيم أنه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة يُحمد عليها، وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها؛ فلا تخرج أفعاله عن الحكمة، والمصلحة، والإحسان، والرحمة، والعدل، والصواب، كما

لا تخرج أقواله عن العدل والصدق^(١).

وكذا الحمد كلّ له وصفاً وملكاً، فهو المحمودُ في ذاته، وهو الذي يجعلُ من يشاء من عباده محموداً، فيهبه حمداً من عنده.

وكذلك العزة كلّها له وصفاً وملكاً، وهو العزيزُ الذي لا شيء أعزّ منه، ومن عزّ من عباده فيأعزازه له.

وكذلك الرحمة كلّها له وصفاً وملكاً.

وكذلك البركة، فهو المتباركُ في ذاته، الذي يباركُ فيمن شاء من

خلقه، وعليه فيصير بذلك مباركاً ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) ﴿غافر: ٦٤﴾ و﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط، وإنما غايةُ معارف

العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاهاً: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

وقال في حديث الشفاعة الطويل: «فأخّر ساجداً لربي فيفتحُ عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن»^(٣).

وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(٤).

(١) شفاء العليل (ص ٢٠١ - ٢٠٢).

(٢) سبق تخريجه (ص ٨١).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) في التفسير، باب: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة، باب: ما جاء في الشفاعة.

(٤) سبق تخريجه (ص ٨٠).

فدلاً على أن الله سبحانه وتعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملكٌ مُقَرَّب، ولا نبيٌّ مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق^(١).

توضيح معنى القرب في بعض الآيات:

قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا يَحِطُّ بِمَا لَدَتْهُمْ إِلَّا هُوَ سَادَّهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن إنما يعني بذلك العلم أن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان. والله - عز وجل - عرش - عرش، وللعرش حملة يحملونه، والله - عز وجل - مستوٍ على عرشه وليس له حد.

والله عز وجل سميع لا يشك، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حلیم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، ولا يسهو، قريب لا يغفل، ويتكلم، وينظر، ويسقط، ويضحك، ويفرح؛ ويحب، ويكره، ويبغض، ويرضى، ويغضب، ويسخط، ويرحم، ويغفر، ويعطي، ويمنع، وينزل كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا كيف شاء، ليس كمثل شيء، وهو السميع البصير^(٢).

تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]:

إنه سبحانه أبرز خلقه من العدم إلى الوجود ليجري عليه أحكام

(١) بدائع الفوائد (٢/١٨٧).

(٢) حادي الأرواح (٢٩٠ - ٢٩١).

أسمائه وصفاته، فيظهر كماله المقدس، وإن كان لم يزل كاملاً، فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه، وأمره، وقضائه، وقدره، ووعده، ووعيده، ومنعه، وإعطائه، وإكرامه، وإهانتته، وعدله، وفضله، وعفوه، وإنعامه، وسعة حلمه، وشدة بطشه.

وقد اقتضى كماله المقدس سبحانه أنه كل يوم هو في شأن، فمن جملة شؤونه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويشفي مريضاً، ويفكّ عانياً، وينصر مظلوماً، ويغيث ملهوفاً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويجيب دعوة، ويقيل عثرة، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ متكبراً، ويقصم جباراً، ويميت ويحيي، ويضحك ويبكي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويرسل رسله من الملائكة ومن البشر في تنفيذ أوامره، وسوق مقاديره التي قدرها إلى مواقيتها التي وقتها لها، وهذا كله لم يكن ليحصل في ذات البقاء، وإنما اقتضت حكمته البالغة حصوله في دار الامتحان والابتلاء^(١).

تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:

٦٥] قال الزمخشري^(٢): هو استثناء منقطع جاء على لغة تميم؛ لأنّ الله تعالى وإن صحّ الإخبار عنه بأنه في السّموات والأرض؛ فإنما ذلك على المجاز؛ لأنه مقدّس عن الكون في المكان بخلاف غيره، فإنّ الإخبار عنه بأنه في السّماء أو في الأرض ليس بمجاز، وإنما هو حقيقة، ولا يصحّ حمل اللفظ في حالٍ واحدٍ على الحقيقة والمجاز.

(١) شفاء العليل (١٢٠).

(٢) هو محمود بن عمر الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. من كتبه: «الكشاف» و«أساس البلاغة» و«المفصل». توفي سنة (٥٣٨ هـ).

قلت: وقوله على لغة تميم^(١)، يريد أن من لغتهم أن الاستثناء المنقطع يجوزُ إتباعه كالم متصل إن صحَّ الاستثناء به عن المستثنى منه، وقد صحَّ هاهنا إذ يصحَّ أن يقال: لا يعلم الغيبَ إلا الله.

قال ابنُ مالك^(٢): والصحيح عندي أنَّ الاستثناء في الآية متصل، و«في» متعلقة بفعل غير استقر من الأفعال المنسوبة حقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين، كذكر ويذكر ونحوه، كأنه قيل: لا يعلم من يذكر في السموات والأرض الغيب إلا الله. قال: ويجوز تعليق «في» باستقر مستند إلى مضاف حذف، وأقيم المضاف إليه مقامه، والأصل لا يعلم من استقر ذكره في السموات والأرض الغيب إلا الله، ثم حذف الفعل والمضاف، واستتر المضمرة لكونه مرفوعاً، وهذا على تسليم امتناع إرادة الحقيقة والمجاز في حال واحد، وليس عندي ممتنعاً لقولهم: القلم أحد اللسانين، والخال أحد الأبوين^(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وقول النبي ﷺ: «الأيدي ثلاثة: يد الله، ويد المعطي، ويد السائل»^(٤).

فهذا كلامٌ هذين الفاضلين في هذه الآية، وأنت ترى ما فيه من التكلف الظاهر الذي لا حاجة بالآية إليه، بل الأمر فيها أوضح من ذلك،

(١) في «الكشاف»: فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض؟ قلت: جاء على لغة بني تميم (الكشاف ١٥٦/٣).

(٢) هو محمد بن عبد الله الطائي، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. له «الألفية» و«تسهيل الفوائد» و«شواهد التوضيح» وغير ذلك. توفي سنة (٦٧٢ هـ).

(٣) جلاء الأفهام (ص ٩٥).

(٤) رواه أبو داود (١٦٤٩) في الزكاة، باب: في الاستعفاف.

والصَّواب أَنَّ الاستثناءَ متَّصلٌ، وليس في الآية استعمالُ اللفظ في حقيقته ومجازه؛ لأنَّ مَنْ في السموات والأرض - هاهنا - أبلغ صيغ العموم، وليس المرادُ بها معيناً، فهي في قوة أحد المنفي بقولك: لا يعلم أحدُ الغيبِ إلا الله، وأتى في هذا بذكر السموات والأرض تحقيقاً لإرادة العموم والإحاطة، فالكلام مؤدُّ معنى: لا يعلم أحدُ الغيبِ إلا الله، وإنما نشأ الوهم في ظنهم أن الظرف - هاهنا - للتخصيص والتقييد، وليس كذلك، بل لتحقيق الاستغراق والإحاطة، فهو نظير الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا ظَلِيمٌ يُظَلِّمُ بِمِحْنَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] فإنها ليست للتخصيص والتقييد، بل لتحقيق الطيران المدلول عليه بطائر، فكذلك قوله: ﴿من في السموات والأرض﴾ لتحقيق الاستغراق المقصود بالنفي.

ومن تأمل الآية علم أنه لم يقصدُ بها إلا ذلك. وقد قيل: إنَّه لا يمتنعُ أن يطلقَ عليه تعالى أنه في السَّموات كما أطلقه على نفسه، وأطلق عليه رسوله. قالوا: ولا يلزمُ أن يكونَ هذا الإطلاق مجازاً، بل له منه الحقيقة التي تليقُ بجلاله، ولا يشابهه فيها شيءٌ من مخلوقاته، وهذا كما يطلق عليه أنه سميعٌ، بصيرٌ، عليمٌ، قديرٌ، حيٌّ، مرید حقيقة، ويطلق ذلك على خلقه حقيقة، والحقيقة المختصة به لا تماثل الحقيقة التي لخلقها، فتناول الإطلاق بطريق الحقيقة لهما لا يستلزم تماثلهما حتى يفتر منه إلى المجاز.

وأما قوله: إنَّ الظرفَ متعلِّقٌ بفعل غير استقرَّ من الأفعال المنسوبة إلى الله وإلى المخلوقين حقيقة، كذكر ويذكر إلى آخره، فيقال: حذف عامل الظرف لا يجوز، إلا إذا كان كوناً عاماً، أو استقراراً عاماً، فإذا كان استقراراً، أو كوناً خاصاً مقيداً، لم يجز حذفه. وعلى هذا جاء مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ [النمل: ٤٠] لأن المراد به

الاستقرار الذي هو الثبات واللزوم، لا مطلق الحصول عنده، فكيف يسوغ حذف عامل الظرف في موضع ليس بمعهود حذفه فيه، وأبعد من هذا التقدير ما ذكره في التقدير الثاني: أن عامل الظرف استقرار مضاف إلى ذكر محذوف، استغني به عن المضاف إليه، والتقدير: استقر ذكره، فإن هذا لا نظير له، وهو حذف لا دليل عليه، والمضاف يجوز أن يُستغنى به عن المضاف إليه بشرطين أن يكون مذكوراً، وأن يكون معلومَ الوضع، مدلولاً عليه لثلا يلزم اللبس.

وأما ادعاء إضافة شيء محذوف إلى شيء محذوف، ثم يُضاف المضاف إليه إلى شيء آخر محذوف من غير دلالة في اللفظ عليه، فهذا مما يُصان عنه الكلامُ الفصيحُ، فضلاً عن كلام ربِّ العالمين.

وأما قوله: على أنه لا يمتنع إرادة الحقيقة والمجاز معاً، واستدلّاه على ذلك بقولهم: القلم أحدُ اللسانين، فلا حجة فيه لأنَّ اللسانين اسمٌ مثنى، فهو قائم مقام النطق باسمين أريد بأحدهما الحقيقة، وبالأخر المجاز، وكذلك: الخال أحد الأبوين، وكذلك: «الأيدي ثلاثة».

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فالاستدلال به أبعد من هذا كله، فإنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ من الله وملائكته حقيقة بلا ريب، والحقيقة المضافة إلى الله من ذلك لا تماثل الحقيقة المضافة إلى الملائكة، كما إذا قيل: الله ورسوله والمؤمنون يعلمون أن القرآن كلام الله، لم يجز أن يقال: إن هذا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وإن كان العلم المضاف إلى الله غير مماثل للعلم المضاف إلى الرسول والمؤمنين، فتأمل هذه النكت البديعة، والله الحمد والمآة^(١).

(١) بدائع الفوائد (١/٦٢ - ٦٤).

الحكمة في مقابلة الصفات:

طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة، كقوله تعالى:

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤] لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم، وشكره إحسانهم قالوا: ﴿ إِنْ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ وفي هذا معنى التعليل، أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات، وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧] فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكركم، وهو عليهم بشكركم، لا يخفى عليه مَنْ شكره مِمَّنْ كفره^(١).

وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم وإظهار عزّ الربوبية، وذلّ العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى كالعفو، والغفور، والتواب، والحليم لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم، والعدل، وذي البطش الشديد لمن أصرّ، ولزم المجرة، فهو سبحانه يريد أن يُري عبده تفرّده بالكمال، ونقص العبد، وحاجته إليه، ويشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره، وستره، وحلمه، وتجاوزه، وصفحته، وأن رحمته به إحسان إليه لا معاوضة، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة، فلله كم لتقدير الذنب من حكمة! وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة! التوبة من الذنب كشرب الدواء للتعليل، ورب علة كانت سبب الصحة:

(١) جلاء الأفهام (ص ٩٥).

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبِهِ وربما صَحَّتِ الْأَجْسَادُ بِالْعَلَلِ^(١)

وكذلك من صفاته الصفات المتقابلة كالرّضا، والسخط، والحب، والبغض، والعفو، والانتقام، وهذه صفات كمال وإلا لم يتّصف بها، ولم يتسمّ بأسمائها. وإذا كانت صفات كمال فإما أن يتعطل مقتضاها وموجبها، وذلك يستلزم تعطيلها في أنفسها، وإما أن تتعلّق بغير محلّها الذي يليقُ بأحكامها، وذلك نقص وعيب يتعالى عنه، فيتعيّن تعلّقها بمحالها التي تليقُ بها، وهذا وحده كافٍ لمن كان له فقهٌ في باب الأسماء والصفات، ولا غيره يغيره^(٢).



الفصل الثالث

طريقة القرآن الكريم في ورود أسماء الله تعالى

التعريف والتنكير:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [فصلت: ٣٦] فأكد بأنّ، وبضمير الفصل، وأتى باللام في «السميع العليم».

وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وسرُّ ذلك - والله أعلم - أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم، ولم يؤكده، أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعذ منه

(١) الفوائد (ص ٦٦ - ٦٧).

(٢) شفاء العليل (ص ٢٢٠).

فيدفعه عنك، فالسمعُ لكلام المستعيز، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شاملٌ للموضعين، وامتاز المذكورُ في سورة (فصلت) بمزيد التأكيد، والتعريف، والتخصيص؛ لأنَّ سياقَ ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكَّوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم.

وأيضاً فإن السياقُ هنا لإثبات صفات كماله، وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته، وشواهد توحيده؛ ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْتَلُّ وَالنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أنَّ من أسمائه «السميع العليم»، كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة، والذي في (الأعراف) في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيز بأن له رباً يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعلم، فكيف تُسَوِّونها به في العبادة؟! فعلمت أنه لا يليقُ بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليقُ بذلك غير التعريف، والله أعلمُ بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذُ منه في سورة «حَمَّ الْمُؤْمِنِ» هو شرّ مجادلة الكفار في آياته، وما ترتَّب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦] فإنه لما كان المستعاذُ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وهناك المستعاذُ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقيله من حيث

لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان، وإخبار الله ورسوله^(١).
التقديم والتأخير بين الرحيم والغفور:

تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾^(٢) فإنه ابتداء سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف، وأوسع العلوم، وهو متضمنٌ لجميع صفات كماله، ونعوت جلاله، مستلزمٌ لها، كما هو متضمنٌ لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كلِّ حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابتٌ له في الآخرة، غير منقطع أبداً، فإنه حمد يستحقّه لذاته، وكمال أوصافه، وما يستحقّه لذاته دائم بدوامه، لا يزول أبداً، وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإنَّ اقترانَ أحدهما بالآخر له كمالٌ زائد على الكمال بكل واحدٍ منهما، فله كمالٌ من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإنَّ الملك بلا حمدٍ يستلزمُ نقصاً، والحمد بلا ملكٍ يستلزمُ عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذا العزة، والرحمة، والعفو، والقدرة، والغنى، والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمد قبله وحمد بعده، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة،

(١) إغاة اللهفان (١/٦١ - ٦٢).

(٢) قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ * يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿سبأ: ١ - ٢﴾.

وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلّق بظواهر المعلومات، فهو متعلّق ببواطنها التي لا تُدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر، والحكمة باطنة، والعلم ظاهر، والخبرة باطنة، فكمالُ الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطنُ العلم وكماله، والحكمة باطنُ الإرادة وكمالها، فتضمّنت الآية إثبات حمده، وملكه، وحكمته، وعلمه على أكمل الوجوه.

حكمة وقوع لفظ (شديد) بين رحمتين:

تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده، فقبله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ وبعده ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣].

ففي هذا تصديقُ الحديث الصحيح، وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وفي لفظ: «سبقت غضبي»^(١) وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت^(٢).

الحكمة في تقديم قوله تعالى ﴿رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ﴾:

المقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة،

(١) رواه أحمد (٣٨١/٢) والبخاري (٧٥٥٤) في التوحيد، باب: قول الله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ والترمذي (٣٥٤٣) في الدعوات، باب: خلق الله مئة رحمة، وابن ماجه (٤٢٩٥) في الزهد، باب: ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة.

(٢) بدائع الفوائد (١/١٩٣).

نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ
الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ [الزخرف: ١٠ - ١٢].

فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول. ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأما تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظ متباينة المعاني، متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني، متطابقة في حق الرب تعالى، لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن.

ولا يناقض بعضها بعضاً في حقه، فكان دخول الواو صرفاً لوهم المخاطب قبل التفكير والنظر عن توهم المحال، واحتمال الأضداد؛ لأن الشيء لا يكون ظاهراً باطناً من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف — هاهنا — أحسن من تركه لهذه الحكمة. هذا جواب الشهيبي.

وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها، أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات، إيذاناً بأن هذه المعاني مع تباينها، فهي ثابتة للموصوف بها.

ووجه آخر — وهو أحسن منها — وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمناً لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال ذكره مرقاة إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان

لرجلٍ مثلاً أربع صفات هو: عالم، وجواد، وشجاع، وغني، وكان المخاطبُ لا يعلم ذلك، أو لا يقرُّ به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجلٍ، . فإذا قلت: زيد عالم، وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد، أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع، أي: وهو مع ذلك شجاع وغني، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار.

وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتره إنكارُ لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره؛ لأنَّ الأولية والآخرية من المتضائفات.

وكذلك الظاهر والباطن، إذا قيل هو ظاهر، ربما سرى الوهم إلى أنَّ الباطنَ مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال، على أنَّ الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، لا سواه. فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية، ودقيقها.

وأما قوله تعالى: ﴿ غَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر: ٣] فعطف في الاسمين الأولين دون الآخرين؛ لأنَّ شدة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة «ذي» فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل، كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ٤] بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدلُّ على الذات من الوصف بذِي؛ لأنها بمعنى صاحب كذا، فالوصف المشتق أدلُّ على الذات من الوصف بها. فتضمَّن هذان الاسمان إثبات شرعه، وإحسانه، وفضله.

ثم قال «شديد العقاب»، وهذا جزاؤه للمذنبين، و«ذو الطول»

جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب.

ثم قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَهُ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] فتضمن ذلك التوحيد والمعاد، فتضمنت الآيات إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم، والثواب، والعقاب، والتوحيد، والمعاد.

واعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء، كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعزیز العليم، وهما اسمان مطلقان، وصفتان من صفات ذاته، وهما مجردان عن العطف.

ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما، وجرّدهما من العاطف.

فأما الأولان فتجرّدهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، وهما متلازمان، فتجرّدهما عن العطف هو الأصل، وهو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك، كالعزیز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم.

وأما ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فدخل العاطف بينهما لأنهما في معنى الجملتين، وإن كانا مفردين لفظاً، فهما يُعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي: هذا شأنه ووصفه في كلّ وقت، فأتى بالاسم الدالّ على أنّ هذا وصفه ونعته المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر، على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، ولا كذلك الاسمان الأولان.

ولما لم يكن الفعل ملحوظاً في قوله: ﴿شديد العقاب ذي الطول﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما، وليس في لفظ ﴿ذي﴾ ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كلّ وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما

لم يعطف في العزيز العليم، فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ فلما كان المقصودُ الشناء عليه بهذه الأفعال، وهي جملة، دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملةُ مع الموصول في تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، والعطف يصيِّرُ كلاً منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد، فقيل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] و ﴿نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الزخرف: ١١] ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ١٢] كانت كلها في حكم جملة واحدة، فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة، دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدها^(١).



الفصل الرابع

معاني الإضافة في قوله: ﴿رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ

النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾

اشتملت هذه الإضافات الثلاثُ على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنی، أما تضمّنها لمعاني أسمائه الحسنی، فإنَّ الربَّ هو القادرُ، الخالقُ، البارئُ، المصورُ، الحيُّ، القيومُ، العليمُ، السميعُ، البصيرُ، المحسنُ المنعمُ، الجوادُ، المعطيُّ، المانعُ، الضارُّ، النافعُ، المقدمُ، المؤخرُ، الذي يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من

(١) بدائع الفوائد (١/١٩٠ - ١٩١).

يشاء، ويشقي من يشاء، ويعزّز من يشاء، ويدلّ من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقّه من الأسماء الحسنی.

وأما الملك، فهو الأمر، الناهي، المعزّز، المذلّ، الذي يُصرّفُ أمورَ عباده كما يحبّ، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقّه من الأسماء الحسنی كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، المذلّ، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله فهو الجامعُ لجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنی.

وإن اسم الله تعالى هو الجامعُ لجميع معاني الأسماء الحسنی، والصفات العُلى، فقد تضمّنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنی، فكان المستعیدُ بها جديراً بأن يُعاذ، ويُحفظ، ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يُسلط عليه.

وأسرار كلام الله أجلّ وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وإن باديه^(١) إلى الخافي يسير^(٢).

معاني الإضافة في قوله ﴿ذو العرش﴾ :

أضاف تعالى العرش إلى نفسه، كما تُضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدلُّ على عظمة العرش، وقُرْبِهِ منه سبحانه، واختصاصه

(١) «باديه»: أي: الذي يظهر منه بالنسبة إلى الخافي يسير.

(٢) بدائع الفوائد (٢/٢٤٩).

به، بل يدلُّ على غاية القرب والاختصاص، كما يضيفُ إلى نفسه بـ «ذو» صفاته القائمة به، كقوله ﴿ذو القوة﴾ ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ ويقال : ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك. فلو كان حظُّ العرش منه حظُّ الأرض السابعة، لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش. وذو الأرض^(١).
إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى :

اعلم أنَّ الرحمة والبركة المضافتين إلى الله تعالى نوعان :
أحدهما: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله .

والثاني: مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها .

فمن الأول قوله في الحديث الصحيح : «احتجَّتِ الجنةُ والنارُ»^(٢) فذكر الحديث، وفيه: «فقال للجنة: أما أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشياء فهذه رحمةٌ مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخصَّ بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء .

ومنه قوله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِثَّةَ رَحْمَةٍ، كُلَّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَدْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً﴾ [هود: ٩].

(١) التبيان (ص ٦٠).

(٢) رواه أحمد (٣١٤/٢) والبخاري (٤٨٥٠) في التفسير، باب: قول الله تعالى: ﴿وتقول هل من مزيد﴾ ومسلم (٢٨٤٦) (٣٦) في الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء .

(٣) رواه أحمد (٣٣٤/٢) والبخاري (٦٤٦٩) في الرقائق، باب: الرجاء مع الخوف، ومسلم (٢٧٥٢) (١٨) في التوبة، باب: سعة رحمة الله تعالى .

ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديماً وحديثاً، وهو
قول الداعي: اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك. وذكره البخاري في كتاب
«الأدب المفرد» له عن بعض السلف، وحكى فيه الكراهة، قال: إن مستقر
رحمته ذاته، وهذا بناء على أنَّ الرحمةَ صفةٌ، وليس مرادُ الداعي ذلك،
بل مرادُه الرحمة المخلوقة التي هي الجنة، ولكن الذين كرهوا ذلك لهم
نظر دقيق جداً، وهو أنه إذا كان المرادُ بالرحمة الجنة نفسها، لم يحسنُ
إضافة المستقرِّ إليها، ولهذا لا يحسنُ أن يقال: اجمعنا في مستقرِّ جنتك،
فإنَّ الجنةَ نفسها هي دار القرار، وهي المستقرُّ نفسه، كما قال: ﴿ حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٦].

وأما البركة فكذلك نوعان أيضاً:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى
بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك، وهو
ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تُضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها
تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلحُ إلا له عز وجل، فهو سبحانه
المُبَارِك، وعنده ورسوله المُبَارَك، كما قال المسيح: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنْتُ ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المُبَارَك^(١).



(١) بدائع الفوائد (٢/١٨٣ - ١٨٦).

الفصل الخامس الحكمة في اقتراء أسماء الله تعالى، وختم الآيات بها

أمر سبحانه بتدبر كلامه والتفكر فيه، وفي أوامره ونواهيه وزواجه، ولولا ما تضمنته من الحكم والمصالح والغايات المطلوبة والعواقب الحميدة؛ التي هي محل الفكر لما كان للتفكر فيه معنى، وإنما دعاهم إلى التفكر والتدبر؛ ليطلعهم ذلك على حكمته البالغة وما فيه من الغايات والمصالح المحمودة التي تُوجب لمن عرفها إقراره بأنه تنزيل من حكيم حميد.

فإنَّ ما في خلق الله وأمره من الحكم والمصالح المقصودة بالخلق والأمر والغايات الحميدة أمرٌ تشهدُ به الفطر والعقول، ولا ينكره سليم الفطرة.

ويذكر تعالى هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه تنبيهاً على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام لقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْفُقَرَاءَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]. فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئاً يقرؤها ﴿والله غفور رحيم﴾ فقال: ليس هذا كلام الله، فقال: أتكذب بالقرآن؟ فقال: لا ولكن لا يحسن هذا،

فرجع القارىء إلى خطه، فقال: ﴿عزيز حكيم﴾، فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿إِن تَعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أي: فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨ وفصلت: ١٢ والزخرف: ٩] في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمنته من فلق الإصباح، وجعل الليل سكناً، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه، ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأمهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته ونجى رسله وأتباعهم برحمته، والحكمة الحاصلة من ذلك أمرٌ مطلوبٌ مقصود، وهي غاية الفعل لا أنها أمرٌ اتفاقي.

وأخبر تعالى بأن حكمه أحسن الأحكام، وتقديره أحسن التقادير، ولولا مطابقته للحكمة والمصلحة المقصودة المرادة لما كان كذلك؛ إذ لو كان حسنه لكونه مقدوراً معلوماً كما يقوله التفاهة لكان هو وضده سواء؛ فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فكان كل معلوم مقدورٍ أحسن

الأحكام وأحسن التقادير، وهذا ممتنع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فجعل هذا أن يختارَ لهم ديناً سواه ويرتضي ديناً غيره، كما يمتنع عليه العيب والظلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فلا أحسن من تقديره وخلقه لوقوعه على الوجه الذي اقتضته حكمته ورحمته وعلمه.

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

ولولا مجيئه على أكمل الوجوه وأحسنها ومطابقتها للغايات المحمودة والحكم المطلوبة، لكان كله متفاوتاً، أو كان عدم تفاوته أمراً اتفاقياً لا يُحمد فاعله؛ لأنه لم يردده ولم يقصده، وإنما اتفق أن صار كذلك^(١).

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: السميع العليم^(٢)، في الأعراف وحم السجدة،

(١) شفاء العليل ص (٢٠٠).

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء معاينة تُرى بالأبصار، وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية.

كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، كقوله: ﴿فَإِنْ زَكَرْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٩].

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَسَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٤].

والقرآن مملوء من هذا، وعلى هذا فيكون في معنى ذلك أنني أسمع ما يردون به عليك، وما يقابلون به رسالتي، وأبصر ما يفعلون، ولا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة والطاعة نوعان: أحدهما قابلوها بقولهم: صدقت، ثم عملوا بموجبها، والثاني قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر^(١).

اقتران الواسع بالعليم:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ

(١) بدائع الفوائد (١/٧٣).

سَبَّحَ سَنَائِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ يَا أَيُّهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦١﴾ وَاللَّهُ يَضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقها، وهما الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه^(١)، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه.

اقتران الغني بالعليم:

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حلیم إذ لا يعاجل المانَّ بالعقوبة. وفي ضمن هذا الوعيد والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة،

(١) «عطنه»: العطن: المتأخر حول الورد، أي مَبْرَك الإبل ومَرْبُض الغنم عند المساء. وفلان ضيق العطن: أي قليل الصبر والحيلة عند الشدائد، بخيل.

فكيف يؤدي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره.
ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون
إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسیه السموات والأرض، ولم
تسعه أرضه ولا سمواته، ولم تُحِط به مخلوقاته، بل هو العالی على كل
شيء، وهو بكل شيء محيط، ولا تنفذ كلماته ولا تبدل، ولو أن البحر
يمده من بعده سبعة أبحر مداً وأشجار الأرض أقلاماً، فكتب بذلك
المداد وبتلك الأقلام، لنفذ المداد وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلماته إذ هي
غير مخلوقة^(١).

انتهى الكتاب بفضل الملك الوهاب، وإلى الله المرجع والمآب،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



(١) طريق الهجرتين ص (٤٤٦).

الفهارس

- * فهرس الأحاديث النبوية .
- * فهرس الموضوعات .

فهرس الأحاديث النبوية

- اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ١٦٠
- احتجّت الجنة والنار ٢٩٤
- احفظ الله يحفظك ١٩٣
- اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة ١٠٧
- اذهبوا إلى محمد عبدِ غفر الله له ٩٥
- اللهم أعني ولا تُعن علي ١٨٥
- اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت ٤٧
- اللهم أنتَ السلام ومنك السلام ٢٧٢ و ١١٠
- اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ٢٦٨ و ٧٠ و ٥٠
- اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ٥٠
- اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك ١٤٠
- اللهم إني أصبحت أشهدك ٢٦٥
- اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ١١٩
- اللهم لك الحمدُ كلُّه ٢٠٧
- اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ٢٦٥
- إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده ١٥٨
- أسألك بأنني أشهد أنك أنتَ الله ٥٠
- أسألك بكل اسمٍ هوَ لك سميت به ٢٧٧ و ٨٠
- أعوذ بعزَّتِكَ ٢٢٦
- أعوذ بكلمات الله التامات ٢٢٦
- أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت ٢٤٦

٢٦٢	أفضل الدعاء: الحمد لله رب العالمين
١٨٤	أفلا أكون عبداً شكوراً
٢٠٠ و ١٨٩ و ٧٠	ألظُّوا ب: يا ذا الجلال والإكرام
٢٢٧	أما أحدهم فأقبل، فأقبل الله عليه
٥٠	أن تجعل القرآن ربيع قلبي
١٧٠	أن ثلاثة أراد الله أن يتليهم
٢٣٨	إن حملة العرش أربعة
٢٢٧	إن الله حيي يستحي من عبده
٢٤٧	إن الله رفيق يحب أهل الرفق
٢٢٨	إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع
٢٨٧	إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده
١١٧	إن الله هو السلام
٢٤٤	إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام
٨١	إن لله تسعة وتسعين اسماً
١١٧	إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر
١٧٠	إني مبتليك ومبتلي بك
٢٠٥	أهل الجنة من امتلأت مسامعه
١١٦	أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر
٢٨٠	الأيدي ثلاثة: يد الله، ويد المعطي
١١٥	بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع
٢٤٢	تعلمت فيك العلم
٢٤١	تمنّ، قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا
٢٦١	تنزيه الله عن السوء
١٥٧	الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات
٢٩٤	خلق الله الرحمة يوم خلقها
٤٨	رب اغفر لي، رب اغفر لي
٢٠١	رب اغفر لي وتب علي

- ربنا ولك الحمد ملء السماء ٢٠٣
- سبحان ذي الجبروت والملكوت ١٢٣
- سبحانك اللهم ربنا ويحمدك ٢٦٥
- سميت به نفسك ٢٥٤
- شتمني ابن آدم وما ينبغي له ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٤٣
- صريح الإيمان أن تعلم أن الله معك ١٩٥
- ضنّ ربك بمفاتيح خمس من الغيب ١٢٩
- عدل فيّ قضاؤك ١٥١
- فأخّر ساجداً لربي فيفتح علي ٢٧٧
- فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه ٨١
- قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة ١٦٧
- قال داود: يا رب كيف أشكر ١٦٧
- قل اللهم إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ٢٠١
- قولي اللهم إنك عفو كريم ١١٩ و ٢٠١
- كل أمتي معافي إلا المجاهرين ٢٢٨
- كنت له سمعاً وبصراً ويداً ٢٤٠
- ليبك وسعديك والخير في يديك ٥٥
- لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ١٥١
- لولا أن الكلاب أمة من الأمم ٢٦٧
- لا أحد أحب إليه المدح من الله ٤٥
- لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ٤٥ و ١٤٩ و ٢٤٣
- لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت ٨١ و ٢٧٧
- لا إله إلا الله العظيم الحليم ٢٠٠
- لا تقولوا السلام على الله فإن الله ١١٤
- لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً ١٦٧
- ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ٢٣٧
- ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال ٢٦٨

- ١٣٠ ما من مولود يولد إلا على الفطرة
- ١٢٩ ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة
- ١٤١ من سعادة ابن آدم استخارته الله
- ١٨٨ من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب
- ١٤٣ نعم (أفتح هو؟)
- ٢٦١ هو تنزيه الله عن كل سوء
- ٢٣٣ والذي نفسي بيده! لقد سأل الله
- ٢٤١ ولقد أوذيت في الله، وما يُؤذى أحد
- ١٨٤ والله يا معاذ! إني لأحبك فلا تنس
- ٤١ يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني
- ١٢٤ يُحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال
- ٢٤٩ يعجب ربنا من قنوط عباده
- ١٢٩ يُوتى بالهالك في الفترة والمعتوه

فهرس الموضوعات

٧	مقدمة
١٤	الكتب المؤلفة في معاني أسماء الله تعالى
١٤	ابن القيم وجهوده في مجال دراسة أسماء الله الحسنی
١٧	منهج ابن القيم في هذا الكتاب
١٩	مضمون الكتاب
٢١	أصل هذا الكتاب
٢٣	عملنا في هذا الكتاب

الباب الأول

معرفة أسماء الله الحسنی

٢٧	الفصل الأول: معرفة أسماء الله وصفاته
٢٧	شواهد الصفات من الكتاب والسنة
٢٨	العلم بالله وبأسمائه وصفاته أجلّ العلوم
٣٠	الإيمان بالصفات العليا أساس الإسلام
٣١	الفصل الثاني: أصول الأسماء الحسنی
٣٣	اتفاق جميع النبوات على أصول العقيدة
٣٥	مشهد الأسماء والصفات
٤٠	الفصل الثالث: مقتضيات الأسماء الحسنی
٤٥	اقتضاء أسماء الله الحسنی لمسمياتها ومتعلقاتها
٤٧	أسلوب الثناء على الله بأسمائه الحسنی
٥٠	الفصل الرابع: التوسل بأسماء الله الحسنی
٥١	الفصل الخامس: الأدب في مراعاة الأسماء الحسنی

٥٤	الفصل السادس: تنزيه الأسماء الحسنی عن الشر
٥٥	معاني قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»
٥٧	الفصل السابع: تجليات الرب تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلی
٥٩	الفصل الثامن: دلالة أسمائه الحسنی على ذاته وتوحيده
٦١	دلالة الأسماء الحسنی على حكمته وقدرته عز وجل
٦٣	الفصل التاسع: آيات الأحكام وآيات الصفات الحسنی
٦٤	الفصل العاشر: لا تأويل في آيات الصفات الحسنی

الباب الثاني

تقسيم أسماء الله الحسنی

٦٩	الفصل الأول: ما يُذكر في الذات والنعوت وأسامي الله تعالى
٧١	الفصل الثاني: أسماء الله ونفي السلب عنها
٨٧	الفصل الثالث: أسماء الله الحسنی وصفاته
٨٧	الله
٨٩	الرحمن الرحيم
٩١	الملك الحق
١٠٣	القدوس
١٠٥	السلام
١٢١	الجبار المتكبر
١٢٥	البصير
١٢٦	العزیز
١٢٧	الحكيم العليم العلام
١٥٧	السميع البصير
١٦١	العدل
١٦٧	اللطيف
١٨١	الحليم العفو
١٨٣	الشاکر الشکور
١٨٩	العلي

١٩٠	الكبير المتكبر
١٩١	الحفيظ
١٩٤	الرقيب الشهيد
١٩٦	الحميد المجيد
٢٢٢	الودود الشكور
٢٢٥	الحي القيوم
٢٢٩	الواحد الأحد
٢٣٣	الصمد
٢٣٥	الغني الكريم
٢٣٧	الصبور
٢٤٤	الجميل
٢٤٧	الرفيق
٢٤٩	المغيث

الباب الثالث

دلالة أسماء الله الحسنى

٢٥٢	الفصل الأول: الاسم والمسمى
٢٥٢	الأسماء قوالب للمعاني
٢٥٤	صفاته تعالى داخلة في مسمى اسمه
٢٥٤	كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه
٢٥٥	الترادف والتباين في أسمائه الحسنى
٢٥٥	معرفة المثل الأعلى
٢٥٧	الفصل الثاني: معرفة الصفات والنعوت
٢٥٧	الفرق بين الصفة والنعوت من وجوه ثلاثة
٢٥٨	اشتقاق اسم الجلالة
٢٥٩	اشتقاق اسم الله تعالى
٢٦٠	معاني ﴿سبحانك اللهم﴾
٢٦٣	معاني اللهم

٢٦٩ أقسام الدعاء
٢٦٩ معاني ﴿تبارك﴾
٢٧٢ تفسير قوله تعالى: ﴿فعال لما يريد﴾
٢٧٤ كثرة صفات كماله ونعوت جلاله
٢٧٥ تفسير قوله تعالى: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾
٢٧٨ توضيح معنى القرب في بعض الآيات
٢٧٨ تفسير قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾
٢٨٣ الحكمة في مقابلة الصفات
٢٨٤ الفصل الثالث: طريقة القرآن الكريم في ورود أسماء الله تعالى
٢٨٤ التعريف والتنكير
٢٨٦ التقديم والتأخير بين الرحيم والغفور
٢٨٧ حكمة وقوع لفظ شديد بين رحمتين
٢٨٧ الحكمة في تقديم قوله تعالى: ﴿رب الناس * ملك الناس﴾
٢٨٨ طريقة القرآن في عطف أسماء الله تعالى
 الفصل الرابع: معاني الإضافة في قوله: ﴿رب الناس * ملك الناس * إله
٢٩٢ الناس﴾
٢٩٣ معاني الإضافة في قوله: ﴿ذو العرش﴾
٢٩٤ إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى
٢٩٦ الفصل الخامس: الحكمة في اقتران أسماء الله تعالى، وختم الآيات بها
٢٩٩ اقتران الواسع بالعليم
٣٠٠ اقتران الغني بالحليم
٣٠٥ فهرس الأحاديث النبوية
٣٠٩ فهرس الموضوعات